

قضايا في السيرة و التفسير  
و الفقه الإسلامي

عنوان الكتاب : قضايا في السيرة و التفسير و الفقه الإسلامي

الناشر : مؤسسة مسجد الحسن الثاني بالدار البيضاء

تاريخ النشر : مارس 2013

المطبعة : DIMAGRAF

رقم الإيداع القانوني : 2012-MO-0524

ردمك : 978-9954-589-08-3

ردمد : 2028-7410

© جميع حقوق النشر محفوظة لمؤسسة المسجد الحسن الثاني بالدار البيضاء

منشورات مؤسسة المسجد الحسن الثاني بالدار البيضاء، عدد 4

## الفهرس

5..... تقديم

9..... نظرات في السيرة النبوية الشريفة.....

د. محمد يسف

27..... جوانب إنسانية من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم.....

عمر محسن

41..... نحو منهجية جديدة للتعامل مع القرآن الكريم.....

د. أحمد نوفل

57..... المذهب المالكي بين دعوى الخلو من الدليل والإنباء عليه.....

د. مصطفى بن حمزة

87..... تنمية التجديد و الاجتهاد: لماذا و كيف؟.....

د. يوسف الكتاني



## تقديم

تقدم مؤسسة مسجد الحسن الثاني بالدار البيضاء هذا الإصدار الجديد للمهتمين و الدارسين أملا في أن يكون هناك تواصل مستمر بين هؤلاء، و بين ما تشهده رحاب المؤسسة من أنشطة علمية، و ثقافية، و فكرية، انطلاقا من مسجد الحسن الثاني بالدار البيضاء، المعلمة الحضارية و الدينية الكبرى بالمغرب، و الذي يأمل الجميع أن تكون معلمة علمية و فكرية تساعد على نشر إشعاع ثقافي متميز، إن على المستوى الوطني أو على المستوى العالمي.

و تعتبر القضايا - موضوع هذا الإصدار، و التي طرحها، و ناقشها مجموعة من العلماء البارزين و المشهود لهم، بفضل العلم، و علو الباع في ميدان السيرة النبوية، و الفقه و التفسير - أقول، تعتبر من أهم محاور أنشطة المؤسسة الثقافية و العلمية لارتباطها بقيمنا الدينية التي تعتبر من أهم مقومات كيان الأمة المغربية.

و ليس من شك في أن القارئ سوف لا يجد فقط في هذه المجموعة من المحاضرات، سردا عاديا لمقولات تتردد، و باستمرار، في المحافل، و في المناسبات، و لكنه سيقف على طرح أفكار تناقش بطريقة أكاديمية مبنية على استنباط الفكرة و تحليلها، و مناقشتها، و تبنيها حين الاطمئنان إليها، كما يقوم من جهة أخرى على دحض ما يستقر في بعض النفوس غير السوية، و تتداوله بعض الألسن غير البريئة، أو تسطره بعض الأقلام غير المنصفة من غمز و لمز في قيمنا الدينية، و في بعض أحكام شريعتنا الغراء.

و ليس من شك في أن قامة علمية كبرى كالدكتور محمد يسف الكاتب العام للمجلس العلمي الأعلى حينما يتناول جوانب من السيرة النبوية الشريفة، فإنه لا يفعل ذلك من باب الحكي و الإخبار، و لكنه يعمد إلى طرح قضايا مهمة يستنتج من خلال تحليلها، مواقف و أحداثا أسست لجزء مهم من التشريع الإسلامي، و مهدت الطريق للبحث فيه و فهمه الفهم الذي يليق بأمة أراد الله أن تكون خير

أمة أخرجت للناس على يد نبي ورسول اختاره الله تعالى ليكون خاتم الأنبياء والمرسلين.

أما أستاذنا الجليل الفاضل الحاج عمر محسن رئيس المجلس العلمي المحلي بالدار البيضاء فقد اختار في مداخلته في هذا الإصدار، أن يركز على الجوانب الإنسانية في حياة سيد البشرية، بطريقته الرصينة المعهودة ومتابعته الجدية، والجديدة ليقنع المتتبع والقارئ بأن الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم جمع في سيرته العطرة الخلاصة الكبرى للقيم الإنسانية القويمة.

و في مجال التفسير فإن الدكتور أحمد نوفل الأستاذ بجامعة الأردن و أحد المبرزين في مجال البحث في تفسير القرآن الكريم، وخاصة في القصص القرآني فقد شرف المؤسسة بمحاضرة حول «منهجية جديدة للتعامل مع القرآن» إستفز من خلالها مكامن عقول الذين حضروها، و دفع بفضولهم إلى البحث في المعايير التي قدمها من أجل فهم جديد للتعامل مع القرآن الكريم الذي سوف لن ينضب له معين، و سوف يتوالى إعجازه، و تتوالى عطاءاته بتوالي الأحقاب و السنين.

و في ميدان الفقه، فإن العالمين الجليلين: الأستاذ الدكتور مصطفى بنحزمة والأستاذ العلامة الدكتور يوسف الكتاني قد ساهما في هذه المأدبة الفكرية في نقاش فقهي يستجد مع كل جديد، و يطرح باستمرار بين النخبة العاملة المتبصرة التي ترسم طريق السائرين في محج هذا الدين القويم، كما أن آثار هذا الطرح والنقاش تنصرف إلى العامة من المسلمين، و خاصة نحن المعتنقين للمذهب المالكي الأشعري، و العالمان الجليلان عرفا لدى الخاص و العام باجتهادهما، ودفاعهما عن كلمة الله الحققة، و شرعه الحنيف و عن التطبيق السليم، و الأمثل لهذا الشرع من خلال فقه قويم معتدل، يلائم بين ما وقر في النفس و القلب من عقيدة مثلى و بين ما يستجد من النوازل في المجتمعات الإسلامية نتيجة التواصل بين أقطار المعمور عبر مختلف الوسائل.

إن البحث المستمر في السيرة النبوية الشريفة، و التنقيب عن مناهج جديدة في التعامل مع سور و آيات القرآن، و المقاربات الفقهية عن طريق الدراسات المتتالية، كل ذلك أصبح من أهم الحاجيات الملحة للمسلم، من أجل الحفاظ على روح الدين

الإسلامي، في عالم يعرف كل لحظة تحولات فكرية و نفسية، ووجدانية واجتماعية، سوف لا تضر بالإسلام حتما، و لكنها قد تضر بنا نحن المسلمين، إذا لم نواجه ذلك عن طريق التواصل العلمي، و الإصغاء باستمرار للعلماء الفضلاء من أمتنا، ذلك لأن هذا الدين يدعو للتي هي أقوم.

و الله من وراء القصد و هو يهدي السبيل.

بوشعيب فقار  
محافظ مؤسسة مسجد الحسن الثاني  
بالدار البيضاء





# نظرات في السيرة النبوية الشريفة

---

د. محمد يسف

الكاتب العام للمجلس العلمي الأعلى

---

النص الكامل للمحاضرة التي أقيمت تحت نفس العنوان بقاعة المحاضرات

بالمكتبة الوسائطية للمؤسسة بتاريخ 31 غشت 2010



بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، اللهم صل على سيدنا محمد  
النبي المصطفى الأمين و على أهله و صحابته أجمعين.  
أصحاب الفضيلة علماء، رؤساء المجالس العلمية و أعضاء هذه المجالس.

السادة و السيدات و الحضور الكرام.

السلام عليكم و رحمة الله و بركاته.

في البداية أعتذر عن هذا التقديم الذي تفضل به الأستاذ الجليل في هذه الورقة  
التي لا أعتقد أنني استحق هذا التقديم الوافي السخي و لكن كرم الضيافة شبه  
معهود عند أهل الفضل و التقوى في هذا البلد.

أصحاب الفضيلة، حضرات السادة الحضور، عندما فاتحني معالي وزير الأوقاف  
و الشؤون الإسلامية الأستاذ أحمد التوفيق و خاطبني في موضوع المشاركة  
في هذه الدروس و هذه المحاضرات في هذه الليالي المباركة، عرض على ذهني أو  
فكرت في الموضوع الذي يمكن أن أشارك به في هذا السمر العلمي الكريم و ترددت  
بين موضوعين موضوع دور أهل المغرب في خدمة السيرة النبوية و ما عرفوا به من  
حب لرسول الله صلى الله عليه و سلم و أهله و موضوع ثاني محددات النبوة  
و الرسالة و مشخصات سير الأنبياء و الرسل عليهم أفضل الصلاة و السلام،  
و غلبني الميل إلى الموضوع الثاني و اعتبرته بمثابة مدخل لسيرة الرسول الأكرم  
صلى الله عليه و سلم. فإذا كان المسلم مطالباً بأن يتعرف على نبيه و رسوله  
و مدعو لدراسة سيرة محمد صلى الله عليه و سلم، فإن الواجب أن يتعرف، قبل  
ذلك، عن أو على مشخصات الرسالة و مشخصات النبوة و التعرف على جانب  
هذا الطلب هل هو طلب شرعي أي أن الإنسان مطالب بأن يتعلم و يقرأ السيرة  
هل هو مطالب بذلك طلباً شرعياً أو طلباً عادياً اختيارياً؟ ثم ما هو الفرق بين النبي  
المتصل بالله عز و جل و بين المتنبي المنتحل للنبوة؟ ما هي العلامات الفارقة بين  
النبي و بين المتنبي؟ معجزات الرسل، ماذا تعني هذه المعجزات؟ ما هي معجزة النبي  
الأكرم النبي صلى الله عليه و سلم؟

هذه الموضوعات، هذه القضايا لا بد من التعرف عليها و أنا أعتقد أنها هي المدخل

للتعرف بالفعل على سيرة الرسول، لأنه عندما ندرس سيرة الرسول لا بد أن يتأكد الدارس لهذه السيرة أنه فعلا يدرس سيرة رسول مبعوث حقا من عند الله عز وجل. فإذا تهيأ لهذا الموضوع بامتلاك أسبابه و شروطه فإنه يستطيع أن يدرك أنه بحضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم. الرسول صلى الله عليه وسلم له جانبان: جانب هو محمد رسول الله ، و جانب ثاني هو محمد الإنسان. و فرق بين محمد رسول الله و محمد الإنسان صلى الله عليه وسلم فوصفه هذا لا طمع لأحد في أن يكون مثله أو قريبا منه و لكن عندما نرجع إلى محمد الإنسان فإنه هو الذي يمكن أن نجتهد في أن نقرب من أخلاقه و من سيرته. القرب من سيرة الرسول عليه الصلاة و السلام يتطلب منا أن نستوعب هذه المقدمات والمدخل.

هذا هو الموضوع الذي أقترحه عليكم أيها السادة الحضور. فاسمحوا لي أن أقول فيه ما تصورت أنه يمكن أن يكون مدخلا فعلا لمعرفة سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم و معرفة هذا النبي العظيم الخاتم لسلسلة الرسل و الأنبياء.

سأتناول هذا الموضوع من خلال 4 فقرات:

الفقرة الأولى: تعلم أو معرفة السيرة النبوية واجب شرعي

الفقرة الثانية: معجزات خاتم النبيين و المرسلين

الفقرة الثالثة: مميزات المعجزة القرآنية

الفقرة الرابعة: شهادات رجال من غير ملتنا بنبوة محمد

### الفقرة الأولى: تعلم أو معرفة السيرة النبوية واجب شرعي

حياة العظماء أيها السادة علماء كانوا أو مصلحين أو زعماء ليست ملكا شخصيا بل هي ملك مشترك بين الناس جميعا، و هي قدر مشاع بين الكافة من حق كل إنسان أن يختار منها ما يستهويه و ينال إعجابه ليجعل منه نموذجا يحتديه و مثلا يقتفيه و ينسج على منواله. يمكن أن نتصور حدوث هذا في كل من وهبه الله تميزا فاق به غيره من البشر في جانب من الجوانب، إذ قل ما يخلو أحد من الناس من نموذج مفضل لديه يجتهد في التشبه به و يتمنى أن يكون مثله أو قريبا منه، هذا

إذا كان هذا الموهوب بشرا من البشر العاديين، لكن عندما تكون هذه البشرية ذات سند إلهي كما هو الشأن لأنبياء الله و رسله الذين اجتباهم لحمل رسالته إلى عباده و تبليغ شريعته و دينه فإن الأمر يتخذ منحى آخر، يخرج عن دائرة مجرد الإعجاب، ليصبح تكليفا شرعيا و واجبا دينيا لا يكمل الإيمان و لا يصح الاعتقاد إلا بتحصيله و التمكن من معرفته، فهناك إذن فرق بين سير عظماء البشر العاديين الذي يمكن أن يكون اختيارنا لأي نموذج منهم اختيارا شخصيا و بين معرفة سيرة نبي مرسل من عند الله، هنا يكون الباعث على ذلك باعثا شرعيا ملزما، التقتير في تحصيله تترتب عليه مؤاخذه و مسائلة في حين لا حرج علينا في حالة ما إذا لم نلتزم بسلوك شخص عادي من العظماء. من أجل ذلك أوجب الشرع على كل مسلم و على كل مسلمة معرفة الحد الأدنى على الأقل من حياة النبي صلى الله عليه و سلم.

أحد الأئمة الكبار و هو أبو الحسين أحمد بن فارس الرازي و هو من علماء الأمة المعروفين له مختصر في سيرة الرسول صلى الله عليه و سلم. بدأ هذا المختصر بقوله «هذا ذكر ما يحق على المرء المسلم حفظه و يجب للدين معرفته من نسب الرسول مولده و منشئه و ذكر أحواله في مغازيه و معرفة أسماء ولده و عمومته و أزواجه. فإن للعارف بذاك رتبة تعلقو على رتبة من جهله، كما أن للعلم به حلاوة في الصدور و لم تعمر مجالس الخير بعد كلام الله تعالى بأحسن من أخبار رسول الله تعالى». انتهى كلام أبي الحسين بن فارس الرازي.

كلام ابن فارس هذا نقله أحد أئمة المغرب الكبار و هو الإمام أبو العباس العزفي السبتي رحمه الله في كتاب له و هو «الدر المنظم في مولد النبي المعظم». فبعدما ذكر نص كلام ابن فارس وقف عند قوله «يجب» قائلا : فهذا الإمام الكبير أبي العباس العزفي من أئمة المسلمين قضى بوجوب معرفة مولده على المؤمنين. انتهى كلام أبي العباس العزفي. في نفس السياق ذكر الشيخ أبو عيسى الفاسي في شرحه على الدلائل إثر كلام ابن فارس، نقل كلام ابن فارس أيضا، «الوجوب في كلام ابن فارس يحتمل الوجوب الشرعي كما يحتمل الوجوب العرفي، بمعنى الحسن و الأفضل و قد حملة أبو العباس العزفي»، هذا كلام أبي عيسى الفاسي، على الوجوب الشرعي، بمعنى أن معرفة رسول الله و طلب هذا العلم الذي هو

سيرة الرسول الله عليه الصلاة والسلام هو واجب شرعي كما قال «تعلو به رتبة العارف على من جهله». ثم قال أبو عيسى «و الظاهر حمل الوجوب على الوجوب الشرعي وأنه يتعلق بجميع ما ذكر ابن فارس.

الإمام القرني خاض أيضا في موضوع حكم تعلم معرفة أو تعلم سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكنه نظر إليها من الجانب العقدي. قال في كتاب الذخيرة له «العقدي»: «إن معرفة الأحوال المتعلقة بالرسول صلى الله عليه وسلم أمر عقدي فيجب البحث عن ذلك ليحصل كمال المعتقد ومشخصاته هي معرفة اسمه ونسبه وزمانه ومكانه وصفته عليه الصلاة والسلام». وعلى هذا المعنى مضى الإمام ابن القيم في «زاد المعاد»، فبعد أن بين اضطراب العباد إلى معرفة الرسول صلى الله عليه وسلم وما جاء به وتصديقه في كل ما أخبر به وطاعته في كل أمر من أموره قال «و إذا كانت سعادة الدارين معلقة بهدي نبي الله صلى الله عليه وسلم فيجب على كل من نصح نفسه وأحب نجاتها وسعادتها أن يعرف من هديه وسيرته وشأنه ما يخرج به عن دائرة الجاهلين ويدخل به في عداد أتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم وشيعته وحزبه. ولم يفت الإمام السهيلي رحمه الله في كتابه «روض الأنوف» الإشارة إلى بعض هذا، فبعدما ذكر بعض الفوائد التي يستفيد منها قارئ سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم فهذه جملة تشرئب - يتكلم عن ما استفاده هو في كتابه «روض الأنوف» - فهذه جملة تشرئب إلى معرفتها أنفس الطالبين وترتاح بالذاكرة بها قلوب المتدينين وكل ما كان من باب المعرفة لنبينا صلى الله عليه وسلم ومتصلا بأخبار سيرته مما يأنق الأسماع ويرتقي بأرواح المحبة والحمد لله على ما علمني ذلك». انتهى كلام الإمام السهيلي.

و الإمام أبو عبد الله محمد بن الأصبغ المعروف بابن المناصف في منظومته الكبيرة المعروفة «بالدرة السنية في المعالم السنية». ذكر في المعلم الرابع منها - خصصه لسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم - و صدر هذا المعلم الرابع بهذه الآيات التي تتضمن الإشارة إلى ما ذكرناه من أقوال هؤلاء العلماء قال :

وإن أولى ما تحلى المسلم بعد كتاب الله أو يقدم علم بأيام رسول الله من لدن  
النشء إلى التناهي

و ما يكون شرف المجالس حلا العلا للحافظ المدارس تعلو به الرتبة عن يقين في شرف الدنيا و حكم الدين

و مجمل القول في ذلك أن معرفة القدر الضروري من سيرة الرسول صلى الله عليه و سلم واجب وجوبا شرعيا بل هو مما يتأكد على المكلف أن يعرفه بعد معرفة الله سبحانه و تعالى فقبل كل شيء عليه أن يعرف الله سبحانه و تعالى وأن يعرف أصول الله، و هذا ما نجده عند الفقيه صاحب المرشد المعين في منظومته التي يقول فيها :

أول واجب على كل من كلف ممكنا من النظر أن يعرف الله و الرسل بالصفة مما عليها نصب الأيادي

و إذا كان طلب معرفة أحوال النبي صلى الله عليه و سلم واجبا وجوبا شرعيا، فبماذا نعرف هذا النبي الذي يجب علينا أن نتعلم سيرته؟ هذا هو المقطع الثاني من هذه الجلسة.

### الفقرة الثانية: معجزات خاتم النبيين و المرسلين

حضرات السادة، عندما يقدم إنسان نفسه و يدعي أنه يتصل بالله تعالى و يحمل منه إلى الناس رسالة ترتب عليهم تكاليف و واجبات يكون من الطبيعي جدا أن يطالبوه بما يثبت به دعواه من البيّنات و الدلائل و البراهين و كل ما من شأنه أن يضيئ شخصية هذا الذي جاءنا بأنه مبعوث من عند الله. و ليس في ذلك ما يتعارض مع منطق الأشياء بل هو من باب التثبت في الأمور و التأكد قبل اتخاذ أي موقف من المواقف. دعاوى إذا لم تحيطها أو تحوطها بينات أبنائها أدعية. القرآن الكريم، أيها السادة، لم ير في هذه المطالبة (مطالبة من يدعي أنه مبعوث من عند الله) القرآن الكريم لم ير في ذلك ما يخرج عن دائرة المنطق و المعقول، حتى إن هذا القرآن قص علينا أن ذلك حصل من بعض الأنبياء أنفسهم، و منهم خليل الله إبراهيم صلى الله عليه و سلم، يقول الحق سبحانه و تعالى: «و إذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى، قال أو لم تؤمن قال بلى و لكن ليطمئن قلبي»، و من هنا ظهرت الحاجة إلى شيء يتميز به النبي الذي يتصل بالله فعلا و بين المتنبئ الكاذب على الله و على الناس حتى تزول الحيرة و يرتفع الشك و تطمئن القلوب

و يثبت اليقين. من أجل ذلك كانت المعجزات التي يؤيد الله بها الأنبياء المتصلين به، فيقتنع الناس الذين أرسل إليهم بأنهم لا يمثلون أنفسهم وإنما يمثلون الله سبحانه و تعالى الذي يقول للناس بلسان المعجزة صدقوا عبدي فيما يبلغكم عني هذه هي المعجزة، و الإيمان بالرسول طبعاً هو وثيق الصلة بالإيمان بالله تعالى، و الإيمان بالغيب يعد من أهم صفات المؤمن التقي، مصداقاً لقوله تعالى: «باسم الله الرحمن الرحيم ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب».

القرآن الكريم يتحدث عن طائفة من المعجزات: منها ما هو مادي خارق للعادة و غالباً ما يكون تحت الطلب و منها ما يكون عقلي تأثيره غير محدود بزمن خاص و لا بمكان معين و لا بإنسان بعينه. و قد عرف العلماء المعجزة التي يؤيد الله بها رسله بأنها «الحادث الخارق للعادة و القوانين التي تسير عليها أنظمة الكون فيجريها الله سبحانه و تعالى تأييداً لرسله فهي لا تظهر إلا على أيدي الرسل، أما ما يظهر على أيدي غيرهم فليس من باب المعجزة الخارقة بل هي من قبيل السحر و الشعوذة و ما يدخل في نطاق ذلك و يجري مجراه. فمن المعجزات التي تحدث عنها القرآن الكريم نجد موسى و بيده عصاه التي قص علينا القرآن الكريم قصتها بقوله: « قال لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين، قال أو لو جئتك بشيء مبين قال فأت به إن كنت من الصادقين. فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين و نزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين». هذه معجزة موسى، معجزة العصا. و منها معجزة عيسى عليه السلام ذكرها القرآن الكريم في قوله تعالى «إني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طائراً بإذن الله و أبرئ الأكمه و الأبرص و أحیی الموتى بإذن الله و أنبئكم بما تآكلون و ما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك آية لكم إن كنتم مؤمنين»، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي نجدها منبثة في كتاب ربنا عز و جل، و يلاحظ أن الآيات التي أظهرها الله على أيدي الأنبياء السابقين تميزاً للنبي المرسل من عند الله عن المدعي للنبوة كذبا و زورا، هذه المعجزات كانت معجزات خارقة للعادة، بيد أن المعجزة الخارقة للعادة لا تخاطب إلا الذين شاهدوها بأعينهم، فليس لها امتداد في الزمان و لا تأثير في اللاحق من الأجيال و هي مع ذلك لم تسلم من طعن الطاعنين و تكذيب المكذبين. كما يلاحظ أن معظم الأمم التي أتتها المعجزات الخارقة أصرت على كفرها و عنادها و لم تؤمن، و قد بين



القرآن الكريم أن الهداية إنما هي من عند الله و أن المعجزة مهما تكن قيمتها فإن نفوسا كثيرة لم تردع بها، قال الله تعالى: «ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون» من أجل ذلك قال الحق سبحانه و تعالى مخبرا نبيه صلى الله عليه و سلم بهذا المعنى إذ يقول «و ما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون و آتينا ثمودا الناقة مبصرة فظلموا بها و ما نرسل بالآيات إلا تخويفا» هذا عن النبوة و المعجزة بها عامة فما هي معجزة خاتم الأنبياء هل هي خارقة أم هي عقلية؟ او هي خارقة و عقلية معا؟ ذلك ما نراه في هذه الفقرة و هي الفقرة الثالثة.

### الفقرة الثالثة: مميزات المعجزة القرآنية

الملاحظ أيها السادة أن الرسول صلى الله عليه و سلم كان أول من سعى و بنفسه إلى التثبت من أمر نبوته هو قبل أن يعلن أمره فطلب الدليل على حقيقة ما كان يسمعه و يراه من أهل العلم بقضايا الوحي و النبوة و الأنبياء، و قد تثبت صلى الله عليه و سلم في الأمر حتى تبين له الحق و زال ما كان ينتابه من هواجس و يعتره من شكوك. فلقد دخل كما نعلم جميعا على زوجه خديجة مرعوبا فزعا و قال لها خشيت على نفسي فبادرت إليه مسكنة روعته و طمأنته بقولها: «كلا و الله لا يخزيك الله أبدا» مستعرضة على مسامحة ما يتحلى به من خصال كريمة قائلة: «إنك لتصل الرحم، و تحمل الكل و تقري الضيف و تكسب المعدوم و تعين على نوائب الحق».

ثم جاءت شهادة عالم من أهل هذا الشأن في وقته و هو ورقة بن نوفل الذي قضى شطرا غير يسير من عمره بحثا عن الدين الصحيح. قال ورقة، بعد أن أصغى بإمعان إلى حديث رسول الله صلى الله عليه و سلم و هو يصف له طبيعة ما يسمعه و يراه، هذا هو الناموس الذي كان يأتي موسى و زاد قائلا يا ليتني فيها جدعا، يا ليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك و زاد و إن يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا. اطمأن الرسول صلى الله عليه و سلم إلى أن الذي يراه و يسمعه ليس من الشيطان و إنما هو من الرحمان. ثم تتابع الوحي و تواتر ولم يعد هناك ما يدعو إلى الشك و الارتياب في أن نبوة محمد و رسالته حقيقية بل هي خاتمة

النبوات و الرسائل و عندئذ خرج إلى الناس و بدأت قصة التبليغ الشاقفة و الممتعة في آن واحد.

معجزة الرسالة الخاتمة. ما هي معجزة الرسول الأكرم صلى الله عليه و سلم؟

بقدر ما تعددت، بقدر ما تعددت آيات نبوة الرسول صلى الله عليه و سلم و تكاثرت فإن معجزته الخالدة الباقية ما بقيت السماوات و الأرض هي وحي الله إليه و كتابه الذي أنزله عليه، هي القرآن المجيد الذي يمثل حضورا و جاذبية و تأثيرا في العقل و القلب و الوجدان و الذي تعددت مظاهر إعجازه و الذي كلما تقدم العلم و تطورت اكتشافاته برزت معجزات أخرى ظلت سرا مكتوما قبل أن يكتشفها العلم الحديث.

معجزة القرآن، اسمحوا لي إن أطلت الوقوف قليلا أمام هذه المعجزة على اعتبار أنها هي أصل معجزة رسول الله صلى الله عليه و سلم لأن مصدر السيرة النبوية هو القرآن الكريم بالدرجة الأولى.

معجزة القرآن الكريم هي معجزة عقلية باهرة متجددة مستمرة إلى يوم القيامة بالإضافة إلى كونها خارقة في بيانها و بلاغتها و أسلوبها و هي خارقة أيضا في إخبارها بالمغيبات ما مضى منها و فات و ما هو قادم منها و أت، في هذا المعنى يحدثنا رسول الله صلى الله عليه و سلم فيقول: «ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر و إنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة». فما هي مميزات هذه المعجزة القرآنية الخالدة؟

يتميز القرآن الكريم عن غيره من الكتب السماوية السابقة عليه بمجموعة من الخصائص نذكر منها:

**الخاصية الأولى:** أنه محفوظ بتدوينه في الصحف و المصاحف و محفوظ أيضا عن ظهر قلب في الصدور من يوم نزوله على قلب محمد صلى الله عليه و سلم إلى يومنا هذا محفوظ حفظا لا سبيل لأحد عليه بتبديل أو زيادة أو نقصان مصداقا لقول الله تعالى في محكم التنزيل « إنا نحن نزلنا الذكر و إنا له لحافظون». و اسمحوا

لي أن أشير في هذا المقام لما قاله شيخ المالكية ببغداد وحامل راية الاجتهاد في المذهب المالكي القاضي اسماعيل البغدادي حين سئل لماذا جاز التبديل والتغيير في الكتب السماوية السابقة و لم يجز على القرآن الكريم؟ فأجاب القاضي لم التبديل على القرآن الكريم لأن الله تعالى تعهد بحفظه بنفسه و لم يكل ذلك لأحد غيره من الناس فقال «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون»، وإنما جاز التبديل والتغيير في الكتب السماوية السابقة لأن الله سبحانه و تعالى لم يتعهد لها بما تعهد به للقرآن الكريم بل وكل حفظها لأهلها من الأحرار و الرهبان، كما قال الحق سبحانه و تعالى: «إنا أنزلنا التوراة فيها هدى و نور يحكم بها النبيون الذين اسلموا للذين هادوا و الربايون و الأحرار بما استحفظوا من كتاب الله و كانوا عليه شهداء». قال فوكل الحفظ إليهم و لذلك ضيعوا و لم يحفظوا، فضاعت كتبهم و تبدلت و تغيرت. هذا جواب الإمام القاضي إسماعيل. لقد علم الله سبحانه و تعالى بعلمه المحيط و حكمته البالغة الباهرة أن ضياع أو تبديل شيء قليل أو كثير من الكتب القديمة لن يؤثر في شيء على شريعة الله ما دام الله سبحانه و تعالى قد ختم هذه الشرائع و هذه النبوءات بكتاب لا يمكن أن يعثره تبديل ولا تغيير، و لذلك لم يتعهد الباري سبحانه و تعالى بحفظ تلك الكتب و لا تلك الديانات لأن تلك الديانات نسخت بالإسلام و نسخت تلك الكتب بكتاب تضمن ما في تلك الكتب و هيمن عليها. شاهد ذلك قوله سبحانه و تعالى «وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب و مهيمنا عليه». فهذا شاهد على أن هذا الكتاب هو مهيمن على الكتب السابقة و هناك شاهد أيضا على أن هذا الإسلام هو ناسخ للديانات السابقة، دليل ذلك من كتاب ربنا يقول الحق سبحانه و تعالى «إن الدين عند الله الإسلام» و يقول «اليوم أكملت لكم دينكم و أتممت عليكم نعمتي و رضيت لكم الإسلام ديناً»، و يقول أيضا «و من يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه و هو في الآخرة من الخاسرين». إذن ليس هناك سوى كتاب واحد و ليس هناك سوى دين واحد. هذه هي الخاصية الأولى.

**الخاصية الثانية:** أن هذا الكتاب الذي هو القرآن جمع من العلوم و المعارف ما لا يحصيه العد و لا يجتمع في مخلوق أبداً، و بالرغم من أن القرآن ليس كتاب علم فإنه دليل هاد إلى كل ما يصلح أمر العباد في دينهم و دنياهم، قال الله تعالى: «ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء». وقال سبحانه و تعالى: «ما فرطنا في

الكتاب من شيء». وقد أفرد الإمام السيوطي في كتاب الإتيان فصلا رائعا لهذا المعنى جمع فيه ما ورد في القرآن الكريم من إشارات ذات دلالة علمية في مختلف العلوم والمعارف.

**الخاصية الثالثة:** أن هذا القرآن هو أصح وثيقة على وجه الأرض لرسالة سماوية بشهادة البحث والباحثين (من جميع الملل والنحل) الذين حصل لديهم بعد التقصي والبحث والنش والتحري اليقين ثبوتا يقينيا لا مطعن فيه ولا شك فيه أن الإنسانية لا تملك أصلا صحيحا موثقا محفوظا بسند متواتر لخطاب إلهي سماوي غير منقوص إلا هذا المصحف الذي يضم بين دفتيه كلام الله تعالى كما أنزله على نبيه ورسوله وخاتم أنبيائه، ومنذ نزوله حفظه جمع من الناس عن ظهر قلب و تناقلته الأجيال جيلا بعد جيلا محفوظا في الصدور و مكتوبا في السطور وفي الألواح والصحف والمصاحف على طول الأرض وعرضها. وفي كل مكان من وطن الإسلام والمسلمين يصلي المسلمون والمسلمات كل يوم خمس مرات على الأقل بنصوص من تلك الرسالة الخالدة. إن البحث النزيه هو الذي يقول إن هذا القرآن هو النص السماوي الفريد الذي تمتلكه البشرية كلها وليس على ظهر الأرض نص آخر تطمئن نفس البحث إليه. فمن أنكر بعد هذا أن القرآن خطاب إلهي كامل ومحفوظ وأن المصحف يحمل بصدق ذلك الخطاب الذي يمثل رسالة الله الخاتمة فقد أعظم على الله الفرية وأنكر على الإنسانية المعاصرة امتلاكها لأصل أي رسالة تأتي من السماء بإطلاق. هذا هو القرآن الكريم وهذه الوثيقة هي الوثيقة الوحيدة في الدنيا التي تثبت أصل دين سماوي على الأرض.

**الخاصية الرابعة:** أن هذا القرآن صنع به نبي الإسلام أمة وبنى دولة وقوم اعوجاج ما أفسده الجهل والظلم والاستبداد في ظرف زمني قياسي وفي أقل من ربع قرن، 23 سنة استطاع الرسول صلى الله عليه وسلم أن يصنع إنسانا كاملا وأن يصنع أمة وأن يؤسس دولة وأن يحيي الأرض بعد موتها. في هذا الظرف القصير تم بناء جيل من الرجال والنساء عجز الزمان على الإتيان بمتلهم في علمهم وأخلاقهم وفي كمال حكمتهم و باهر قدرتهم على سياسة الدول والأمم وعلى فن قيادة الإنسان.

لا تحسبوا أيها السادة أن البشر الذي عاصر نزول الوحي فنقله له هذه النقلة

الرائعة من أكثر الأوضاع تردياً على الأرض و هبوطاً إلى أعلى درجات الكمال الإنساني. إن هذا القرآن نزل في قوم جفاة غلاظ لا يقرون كما يقول الإمام ابن حزم « لا يقرون بملك و لا يطيعون لأحد و لا ينقادون لرئيس، نشئوا على ذلك، كما نشأ عليه آبائهم و أجدادهم و أسلافهم منذ ألوف الأعوام. قد صار الفخر و العز و النخوة و الكبر و الظلم و الأنفة في طباعهم حتى صارت تشبه طباع السباع، وهم ألوف الألوف، قبائل و عشائر يتعصب بعضهم لبعض و يقولون أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً بالمعنى الجاهلي. دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بلا مال و لا أتباع إلى أن ينحطوا من ذلك العز إلى غرم الزكاة و من الحرية و الظلم إلى تطبيق الأحكام عليهم و من طول الأيدي بقتل من أحبوا و أخذ مال من شاءوا إلى القصاص من النفس و من قطع الأعضاء و من اللطمة من أجل من فيهم لأقل عرج غريب دخل فيهم، و من إسقاط الأنفة و الفخر إلى ضرب الظهر بالسياط أو بالنعال إن شربوا الخمر أو قذفوا إنساناً، و إلى الضرب بالسياط و الرجم بالحجارة إلى أن يموتوا إن زنوا، فانقاد أكثرهم لذلك طوعاً بلا طمع و لا غلبة و لا خوف و ما منهم أحد أخذ بغلبة إلا مكة و خيبر فقط، و ما غزى رسول الله صلى الله عليه و سلم قط غزوة يقاتل فيها إلا تسع غزوات بعضها كان عليه و بعضها كان له، فصح يقيناً أنهم آمنوا به طوعاً لا كرهاً و تبدلت طباعهم بقدرته الله تعالى من الظلم إلى العدل و من الجهل إلى العلم و من العسف و القسوة إلى العدل العظيم الذي لم يبلغه أكابر الفلاسفة و أسقطوا كلهم (أولهم عن آخرهم) طلب الثأر، فصحب الرجل منهم قاتل أبيه و ابنه و أعدى الناس إليه صحبة الإخوة المتحايين دون خوف يجمعهم و لا رياسة يتفردون بها دون من أسلم من غيرهم، ثم بقي عليه الصلاة و السلام بين أظهرهم بلا حرس و لا ديوان جند و لا بيت مال محروساً معصوماً حتى لقي الله سبحانه و تعالى و الجزيرة العربية كلها تشهد بوحدانية الله الواحد الأحد. كل ذلك البشر حوله رسول الله صلى الله عليه و سلم الذي هذه صفاته حوله الرسول صلى الله عليه و سلم في ظرف عشرين سنة إلى أمة قال الحق سبحانه و تعالى: «كنتم خير أمة أخرجت للناس».

و حاصل القول أننا عندما نكون بصدد دراسة السيرة المحمدية نكون مستيقنين بأننا في صحبة رسول رب العالمين حقيقة، بل إن الفقيه الحافظ ابن حزم كان يجزم بأن سيرة رسول الله صلى الله عليه و سلم تمثل أكبر معجزة له بعد القرآن

الكريم، وأنه لو لم تكن له معجزة غير سيرته لكان ذلك كافيا. ويزيد هذا الفقيه الموضوع بياناً وإيضاحاً وشرحاً فيقول: «ذلك لأنه عليه الصلاة والسلام نشأ في بلاد الجهل والامية لا يقرأ ولا يكتب بشهادة القرآن الكريم» «وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك»، ولا خرج عليه الصلاة والسلام عن البلاد قط إلا خرجتین: إحداهما إلى الشام وهو صبي مع عمه ورجع، والأخرى أيضا إلى أول أرض الشام ولم يطل البقاء بها. ولا هو فارق قومه قط، ثم أوطئه الله تعالى على رقاب العرب كلهم فلم تتغير نفسه ولا حالة سيرته إلى أن مات ودرعه مرهونة في شعير لقوت أهله، ولم يبت قط في ملكه درهم ولا دينار وكان يأكل على الأرض ما وجد ويخصف نعله بيده ويرقع ثوبه ويوتر على نفسه، ثم حضرته المنية وأيقن بالموت وله عم أخو أبيه هو أحب الناس إليه وابن عم هو من أخص الناس به وهو أيضا زوج ابنته التي لا ولد له غيرها، وله منها ابنان ذكران وكلا الرجلين المذكورين عمه وابن عمه عندهما من الفضل في الدين والسياسة في الدنيا والبأس والحلم وخلال الخير ما كان كل واحد منهما حقيقا بسياسة العالم كله، فلم يحاييهما وهما من أشد الناس غناء به ومحبة فيه وهو من أحب الناس فيهما إذ كان غيرهما متقدما لهما قاصدا بذلك تنفيذ أمر الله وإتباع أوامره ولم يورث ورثته ابنته ونسائه وعمه فلما فقهوا وهم كلهم أحب الناس إليه وأطوعهم له. هذه الأمور لمن تأملها كافية مغنية في أنه إنما تصرف بأمر الله عز وجل، بسياسة لا بهوى. فوضح أن نبوة محمد صلى الله عليه وسلم حق وأن شريعته التي أتى بها هي التي وضحت براهينها واضطرت دلالتها إلى تصديقها والقطع على أنها الحق الذي لا حق سواه وأنها دين الله الذي لا دين له في العالم غيره. هذا كلام ابن حزم الذي يؤيد به مقولته في أن سيرة النبي الله رسول الله صلى الله عليه وسلم هي من أكبر معجزاته بعد القرآن الكريم. ننتقل بعد هذا إلى شهادة قوم بنبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم من غير ملة الإسلام.

### الفقرة الرابعة: شهادات رجال من غير ملتنا بنبوة محمد

أذكر ثلاثة منها: الشهادة الأولى هي شهادة هرقل عظيم الروم والشهادة الثانية هي شهادة النجاشي والشهادة الثالثة هي شهادة مقوقس القبط بمصر، هؤلاء نصارى مسيحيون شهادتهم تدور حول أن هذا النبي هو مبعوث من عند الله حقا،

هؤلاء لم يشاهدوا معجزة و لم يشاهدوا رسول الله صلى الله عليه و سلم و لم يروه بأعينهم و لكنهم استمعوا إلى حديث الناس عن هذا الرسول و عن وصف الذين شاهدوه و تحدثوا عنه، فاستيقنوا انه رسول من عند الله حقيقة. الكلام هنا طويل بعض الشيء لا أريد أن أطيل عليكم. في حديث هرقل و أبي سفيان في كلام طويل ينتهي فيه هرقل بالاعتراف برسالة صلى الله عليه و سلم و بأنه نبي الله حق. أبو سفيان هو عدو لرسول الله صلى الله عليه و سلم في هذا الوقت الذي كان يخاطبه فيه و يحاور فيه هرقل و يخرج أبو سفيان و هو مقتنع بأن محمد ابن عبد الله هو رسول الله حق.

النجاشي يأتي اعترافه و تقديره للرسول عليه الصلاة و السلام في سياق غير السياق الذي جاء به اعتراف هرقل عظيم الروم. الحديث بين النجاشي و بين جعفر ابن أبي طالب الذي تحدث باسم المهاجرين الذين التجئوا إلى الحبشة. جعفر ابن أبي طالب خريج مدرسة الرسول صلى الله عليه و سلم في دار الأرقم ابن أبي الأرقم التي تحولت إلى معهد علمي كبير، كذلك أيضا حديث المقوقس. كل هذه الأحاديث معروفة و مشهورة فلن نطيل بها و لكنها تثبت بأن نبوة الرسول صلى الله عليه و سلم تتحقق بالمعجزة و تتحقق أيضا بسيرته و بأخلاقه و بما كان عليه الصلاة و السلام من صفات.

حضرات السادة إن أمامنا كما قلنا صورة أو وثيقة ربانية هي وثيقة القرآن الكريم التي صنع بها رسول الله صلى الله عليه و سلم أمة و أحيأ بها الإنسانية بعدما كادت أن تتردى. الرسول عليه الصلاة و السلام استطاع أن يحقق ذلك في ظرف قصير فكان ما كان بهذا القرآن. السؤال هو ما بال هذا القرآن الذي نتلوه و نقرأه و نحفظه و نرتله و ندرسه؟ ما بالناسم نستطيع إعادة بناء هذا الإنسان؟ ما بالناسم نستطيع صياغة هذا الإنسان؟

القرآن الذي صنع به الرسول صلى الله عليه و سلم هذا الإنسان هو هذا القرآن الذي هو بين أيدينا الآن. إذن السؤال الكبير الذي يطرح علينا هو كيف نفهم هذا القرآن و كيف نحوله إلى قوة محركة تصنع هذا الإنسان و تعيد تجديد هذه الأمة لتخرج نموذجا جديدا ما أحوج الدنيا إليه اليوم. ما هي الشروط التي يجب أن تتوفر لدينا اليوم لتجرب تجربة أخرى لعل المسلمين يستطيعون أن يقدموا هذا

النموذج الجديد لهذا العالم الذي يفتقر إليه اليوم؟ هذا سؤال نطرحه كيف نعيد بناء الإنسان؟ كيف نعيد الاستفادة من القرآن الكريم؟ إن تعاملنا مع القرآن الكريم اليوم ليس هو التعامل الذي تعامل به رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام مع هذا القرآن، إنهم تعاملوا معه بشكل آخر غير هذا التعامل الذي نتعامل نحن به اليوم. إننا نقرأه ونرتله ونحفظه ولكن لا يظهر له أثر في حياتنا، في سلوكنا وفي أخلاقنا. كيف نحدث هذه النهضة بالقرآن. إذن أعتقد أننا نملك الآن قرآنا هو أصح ما يوجد على وجه الأرض و نملك سيرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم. هناك قرآن نقرأه وهناك قرآن كان يمشي على الأرض. القرآن الذي كان يمشي على الأرض ويتحرك على الأرض هو رسول الله كما تجسده وتمثله لنا سيرته العطرة.

أعتقد أنه إذا قرأنا هذه السيرة كما يجب أن تقرأ سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام وأن نتمثلها وأن نجعلها حية في نفوسنا وفي سلوكنا وفي أخلاقنا نكون عندئذ بصدد وضع الخطوة الأولى في بناء إنسان القرآن. عندنا الأدوات الآن، يبقى أن هذا الإنسان الذي يعيش الآن ويقرأ القرآن ويحفظ القرآن ويرتل القرآن هل هو مستعد لأن يتأمل قليلا كيف يعيد الحركية لهذا القرآن كيف يجعله قوة دافعة لهذا الإنسان لينهض به ويخرجه إلى الدنيا نموذجاً جديداً. إذن عندنا القرآن نتلوه ونقرأه وعندنا قرآن كان يتحرك لأن الرسول عليه الصلاة والسلام، سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام هي قرآن، كان خلقه القرآن، كانت حركته القرآن، الرسول عليه الصلاة والسلام هو قرآن مجسد في شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذن شيء نحتاج إليه نفتقده أين هو؟ كيف هو؟ كيف نخرجه؟ كيف نهتدي إليه؟ كيف نصنعه في أنفسنا؟ هذا هو السؤال الذي ينبغي أن نطرحه.

حضرات السادة لقد سعيت من وراء عرض هذا الشريط الذي اختزلته وحذفت منه الشيء الكثير. عرضت هذه الشواهد النقلية والعقلية الدالة على معالم النبوة وأمارات الرسالة والرسول لأشير إلى أن دارس سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم هو إنسان يتنزه في روضة من رياض الجنة، السيرة هي روضة من رياض الجنة. تاريخ حياة الرسول عليه الصلاة والسلام هو تاريخ حقيقي، السيرة النبوية



هي وثيقة حقيقة صادقة بل هي أوثق سيرة توجد على الأرض. كما أن القرآن الكريم هو أصح وثيقة موجودة على الأرض لأصل دين سماوي، فسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم الصحيحة هي سيرة رسول أو هي حياة رسول حقيقي، بل هي أوثق وأصح سيرة لنبي أرسله الله، وليس هناك أي شيء آخر. هذا هو الذي أحببت ان أبلغه في هذه الجلسة المباركة. إذن أمامنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مبلغ لرسالة الله، كان يتلقى الوحي وينقله، نحن لا نطمع في أن نكون مثله في هذه الصورة ولكن نطمع في أن نكون مقتدين وأن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو أسوتنا، هو محمد الرسول البشر الذي كان يأكل مع الناس و يجلس مع الناس و يدور مع الناس، هذا هو الرسول الذي تعلم منه الناس و هو الذي خلق الحياة في الإنسان، نريد أن نرجع إلى هذه السيرة لنخرج منها الإنسان مرة أخرى.

و الحمد لله رب العالمين.



# جوانب إنسانية من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم

---

عمر محسن

رئيس المجلس العلمي بعمالة مقاطعات أنفا

---

النص الكامل للمحاضرة التي أقيمت تحت نفس العنوان بقاعة المحاضرات

بالمكتبة الوسائطية للمؤسسة بتاريخ 19 غشت 2011



من العظماء من إذا استغرقت في عناصر شخصيته فإنك تلتقي بذاته في نطاق الدائرة المحدودة من تلك العناصر التي جعلت منه إنساناً عظيماً صاحب فكر أو صاحب قوة وما إلى ذلك مما يمنح شخصيته ضخامتها الذاتية التي لا تمتد إلى أبعد من ذلك، ومن العظماء من إذا استغرقت في داخل شخصيته، فإنك تفتح على العالم كله، ذلك هو الفرق بين عظيم يجمع عناصر عظمته من أجل أن يؤكد ذاته، وبين عظيم يجمع هذه العناصر من أجل أن يعطي الحياة عظمة، ويتجه بالإنسان إلى مواقع العظمة حتى تكون عظمته حركة في الحياة، حركة في الإنسان، ويجتمع الإنسان والحياة وينطلقا ليعيشا مع أجواء العظمة في الله العلي العظيم.

من أولئك أنبياء الله الذين عاشوا لله، فاكتشفوا الحياة من خلاله لأنها هيته، واكتشفوا الإنسان من خلاله، لأنه خلقه. وبذلك، فإنهم لم يعيشوا مع الله - سبحانه وتعالى - استغرافاً في ذاته بالمعنى العاطفي للكلمة، لتكون كل حياتهم مجرد تأوهات وتنهّدات وحسرات وما إلى ذلك، ولكنهم رأوا بأنهم عندما ينقدون الإنسان من جهله، إنما بذلك يعبدون الله، فقد ارتفعوا إلى الله من خلال رفعهم للإنسان إلى مستوى المسؤولية عن الحياة من خلال تعاليم الله، عاشوا الآلام والحسرات مع الله من خلال حملهم لآلام الإنسان وتنهّداته من أجل أن تنطلق روحانيتهم في قلب مسؤوليتهم.

ولذلك فالأنبياء ليسوا شخصيات عظيمة تعيش في المجال الطبقي الذي يصنعه الناس لعظمائهم، ولكن الأنبياء كانوا يعيشون مع الناس، كانوا فيهم كأحدهم، يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق، يفتحون قلوبهم لإنسان يعيش ألماً من أجل أن يفسحوا المجال للفرح حتى يطرد ذلك الألم، يتواضعون للناس، يستمعون إلى آلامهم، يشاركونهم، يعيشون معهم، لا يتحسسون في أنفسهم أية حالة علو وهم في المراتب العليا، ومما تنقله إلينا السيرة، بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان ذات يوم يسير ورائه امرأة فارتعدت هيبته له فقال (ص) ما عليك إنما أنا ابن امرأة مثلك كانت تأكل القديد.

إنه لم يفتح على ما رآه من هيبته لتكون هيبته فاصلاً بينها وبين إحساسها الإنساني به، وإحساسه الإنساني بها، لم يرد للعظمة أن تكون حاجزاً بين إنسان وإنسان، كما يفعل الكثيرون ممن يتخيلون أنفسهم عظماء، أو يرفعهم الناس إلى

صفوف العظماء، فإذا بك تجد بينهم وبين الناس حواجز وحواجز، لا يعيشون التفاعل مع الناس، وبذلك سقطت عظمتهم من خلال ما كانوا يؤكدونه من عظمتهم.

أما رسول الله (ص) فقد ارتفع إلى أعلى درجات العظمة عندما عاش حياة الإنسان محتضناً له، ليرحمه وليرأف به، فلأن سرّ إنسانيته في سرّ نبوته، في سرّ حركته في الحياة. لذلك قد نجد أن بعض الناس يتحدثون في أشعارهم عن جمال الرسول (ص) وعن لون عينيه وعن جمال وجهه، ويتغزلون به من خلال ذلك، في الوقت الذي نرى أن الله لم يتحدث عن كل ذلك، والسبب في ذلك أن الله أراد أن يقول لنا بأن الأنبياء الذين هم رسل الله إلى الناس، انطلقوا مع الإنسان في صفاته الإنسانية التي تلتقي بالإنسان الآخر.

أن تكون أيّ شيء في جمالك، أيّ شيء في خصائص جسدك، ذاك شيء يخصك، لا علاقة له بالناس، لكن ما هي أخلاقك، ما هي انفعالاتك بالناس، ما هو احتضانك لحياة الناس، ما هي طبيعة أحاسيسك، هل هي أحاسيس ذاتية تعيشها في ذاتك؟ أو هي أحاسيس إنسانية تحتضن بها أحاسيس الناس؟ كيف قدّم الله لنا نبيه ورسوله المصطفى (ص)؟ لم يذكر لنا نسبه، ونحن دائماً نصرّ على العائلية في الحديث، فلم يتحدث لنا عن هاشميته، ولا عن قرشيته، ولا عن مكيتته، لم يحدثنا عن اسم أبيه، ولا عن اسم أمه ولكن حدثنا عنه بصفته الرسولية والرسالية: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم﴾، لم يأت من فوق ليطل عليكم من علياء العظمة، ولد بينكم، عاش معكم، تألم كما تتألمون، وعاش الجوع كما تعيشون، عاش اليتم كما تعيشون عندما تكونون أيتاماً، ﴿من أنفسكم﴾ وكلمة من أنفسكم تحمل في داخلها عمق المعنى الإنساني، الذي يجعل النبي (ص) في الصورة القرآنية إنساناً مندمجاً بالناس الآخرين، يعيش معهم، من داخل حياتهم، من داخل آلامهم، من داخل أحلامهم، من داخل قضاياهم، بحيث لا يوجد بينهم وبينه أيّ فاصل، إنه يتابعكم وأنتم تتألمون، يتابعكم وأنتم تتعبون، يتابعكم وأنتم تواجهون مشاكل الحياة التي تثقلكم، يعزّ عليه ذلك ويؤلمه ويثقله، لأنه يعيش دائماً في حالة نفسية متحفزة تراقب وترصد كل متاعبكم ومشاقكم ﴿حريص عليكم﴾ وكلمة حريص هنا تختزن في داخلها الكثير من الحنان،

من الأبوة، من الاحتضان، من العاطفة.. يحرص عليكم فيضمكم إليه، فتعيشون في قلبه، يقدم لكم حلولاً لمشاكل حياتكم، عن كل تعقيداتكم، يحرص عليكم فيوحدكم، ويجمع شملكم تماماً كما يحرص الأب على أبنائه والأم على أولادها، حريص عليكم يخاف أن تضيعوا، يخاف أن تسقطوا، يخاف أن تموتوا، وهو ﴿بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ (التوبة) الرأفة كلها والرحمة كلها، والرحمة في القرآن الكريم ليست مجرد حالة عاطفية، نبضة قلب وخفقة إحساس، بل الرحمة هي حركة الإنسان فيما يمكن له أن يحمي أخاه الإنسان، يحميه من نفسه، ومن غيره، من أجل الانطلاق بالإنسان.

ألم نقرأ الآية الثانية وهي تحدثنا عنه (ص) ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم﴾ (آل عمران)، هذه الرحمة الإلهية التي أنزلها الله على الناس من خلال تجسدها في النبي (ص)، بحيث بعث إليهم رسولا يعيش وعي الواقع ويواجه كل التحجر، تحجر التقاليد، والعادات والعقائد، والتعقيدات، وما إلى ذلك، يواجه ذلك وهو يرى أن هذا التحجر يمكن أن يتحول إلى حجارة ترميه تماماً كما كانت الحجارة تدمي رجليه وهو في الطائف، وكما كانت حجارة القذارات تثقل جسده وهو عائد من البيت الحرام أو ساجد بين يدي ربه بجوار الكعبة. كان يعرف أن هناك تحجراً، وأن الذي يريد أن يبعث النبيين في قلوب الناس لا بُدَّ له أن يكتشف في الحجارة شيئاً من النبيوع، لأنَّ الله حدثنا أن من الحجارة ما يتفجر منه الماء، إنَّ هناك ينبوع في قلب الحجارة، لذلك لا تنظر إلى حجرية الحجارة ولكن انفذ إلى أعماقها.

لذلك لا ينبغي أن تيأس من أصحاب العقول المتحجرة وتقول إنَّ هؤلاء لا ينفع معهم كلام ولا يمكن أن ينطلقوا إلى الحوار، اصبر جيداً، انطلق بالنبيوع من قلبك، ليكن قلبك ولسانك لينين، فإنَّ لين القلب ينفذ إلى أعماق الحجارة ليخرج منها الماء، ولين الكلمة ينفذ إلى حجارة العقل من أجل أن يفتح فيها أكثر من ثغرة ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾ (آل عمران) قال ذلك لكل إنسان يحمل مسؤولية فكر يريد أن يُقنع به إنساناً، أو يحمل عاطفة يريد أن يفتح بها قلب إنسان إنها القدوة. وهذا ما يحدثنا الله عنه في صفات رسوله (ص) فإنه يقول لنا: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾ (الأحزاب)، قد يقول قائل: هذه صفات رسول الله فأين نحن من رسول

الله؟ إن الله يقول لنا: إنَّ محمداً انطلق في سيرته من خلال رسالته، ورسالته بين أيديكم، فإذا لم تستطيعوا أن تقتربوا من مستوى العظمة في وعيه لرسالته، ولم تستطيعوا أن تبلغوا القمة، حاولوا أن تقتربوا من القمة ولو قليلاً، والقدوة في المسألة الإنسانية هي إichاء للإنسان أن بإمكانه أن يقترب من القمة إذا لم يستطع أن يصل إليها. وهكذا لم يكن الرسول (ص) مجرد رسول في التاريخ، ولكنّه - وذلك سرُّ عظمته - كان رسالة في رسوليته، وكانت رسوليته هي الامتداد لشخصيته، حتى أننا نشعر أنّ حضوره فينا ونحن نصلي عليه ونستحضر سيرته وندرس سنته ونقرأ القرآن الذي أنزل عليه، بأنَّ حضوره فينا كأفضل الحضور، أعظم من حضور كثير من الناس الذين يحسبون أنفسهم حاضرين، ولكنهم غائبون عن الأمة، قد يكونون حاضرين في الساحة بأجسادهم ولكنهم غائبون عن عقول الأمة وقلوبها وإحساسها، وقضية الحضور والغياب هي في مدى وعي الناس الذين تعيش في داخلهم لا من خلال الحجم الذي يتخذه الإنسان لنفسه، لذا لا نبالغ إذا قلنا إن أحداً من البشر لم ينل من الحب والإعجاب ما ناله رسول الله صلى الله عليه وسلم من أتباعه، يحبونه ويعظمونه إلى درجة التعلق والوجد، وغير المسلمين - وإن هاجمه أكثرهم - إلا أنهم لا يملكون أنفسهم من شدة الإعجاب به والتقدير له. كانت علاقته صلى الله عليه وسلم بأتباعه تماثل علاقة الأب بأفراد أسرته، فاستطاع أن يكتسب ثقتهم وقلوبهم بالصفح والتسامح من جهة، وبالرعاية والمحبة من جهة أخرى، ومن جهة ثالثة كان عظيم الفهم للنفس الإنسانية وما يختلج فيها من مشاعر وحاجات، ومن خوف وضعف، فمكّنه ذلك من الحكم الشمولي المنصف على الإنسان، بعيداً عن إغفال حميد صفاته، والتركيز على إظهار زلاته.

لقد كان للنبي صلى الله عليه وسلم في حياته جوانب مشرقة، ونواحي مختلفة من العظمة والإنسانية، وكان في كل جانب المثل الأعلى، والنموذج الفريد، لم يكن صلى الله عليه وسلم سياسياً محنكاً فقط، ولا قائداً عسكرياً فذاً فحسب، ولا مصلحاً اجتماعياً فقط، ولا رجلاً بلغت فيه الإنسانية ذروتها فحسب؛ بل كان كل هذا وأكثر، وتجسدت فيه معالم الإنسان الكامل، فمن أي جانب أردت أن تتحدث عن الإنسانية، فسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم هي القدر المعلى.



إن الإنسانية ليست فلسفة وضعية يصطلح عليها مجموعة من الناس يخالفهم فيها غيرهم، ولا كنها فطرة الله التي فطر الناس عليها، وهي مجموعة قيم أخلاقية قد اتفق العقلاء على استحسانها، وأي مصلح يتكلم عن الإصلاح فإنما يتحدث عن هذه القيم الإنسانية.

ومهما بلغ هذا المصلح أو ذاك من العظمة والإنسانية، فإنه إن استطاع تثبيت بعض القيم الإنسانية، سيغفل عن جوانب أخرى تعجز نفسه عن إدراكها، بل حتى في الجوانب الإنسانية التي يريد تثبيتها، ويسخر حياته من أجلها، قد لا يعطيها حقها اللائق بها، ولا يستطيع أن يزنها بميزان عدل، وإنما قد يتطرف بها ذات اليمين وذات الشمال.

وأما المصلح العظيم والإنسان الفذ صلى الله عليه وسلم، فهو أجل وأعظم من أن يبخس الإنسانية جانبا من جوانبها، وأعظم من ذلك، فإنه قد أعطى كل جانب قدره من غير نقص ولا شطط، لأنه تجسدت فيه معالم الإنسان الكامل فقد كان يفيض رقة وإنسانية، وتتفجر منه العواطف النبيلة، والمشاعر الغامرة، حتى شملت بفيضها وامت بخيرها كل من حوله من أحبابه وأصحابه وأهله وأولاده وأعدائه وخصومه، ولم تقف عند هذا الحد بل كان للحيوان من إنسانيته نصيب موفور.

**– إنسانيته مع أصحابه:** كان صلى الله عليه وسلم يحب أصحابه، ويبدأهم بالسلام، ويكنيهم ويدعوهم بأحب الأسماء إليهم، بل كان يقف لخدمتهم، ويجهد نفسه لراحتهم، يقول أنس بن مالك: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستقي أصحابه، فقالوا: يا رسول الله: لو شربت؟ قال: ساقى القومي آخرهم شربا». وكان أشد ما يكرهه منهم أن ينزلوه منزلة كسرى وقيصر، فيبالغوا في تعظيمه ويشتطوا في تقديره، فقد ( دخل رجل على النبي صلى الله عليه وسلم فأصابته رعدة من هيئته فقال: هون عليك فإني لست بملك إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد) كان يسأل عن أخبارهم، ويتفقد أحوالهم، ويدعو لغائبهم، ويزور مريضهم ويشيع جنازتهم، ويصلي عليهم، فعن ابن عمر - رضي الله عنهما - كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلى الغداة أقبل عليهم بوجهه فقال: هل فيكم مريض فأعوذه؟ فإن قالوا: لا؛ قال: هل فيكم جنازة أتبعها؟ فإن قالوا: لا؛ قال: من رأى منكم رؤيا فليقصها علينا؟

وقد بلغ حبه لهم وشفقته عليهم أنه يرق لحالهم فيحزن قلبه وتمدع عينه وتتفطر نفسه، ففي رواية ابن عمر - رضي الله عنهما - (قال اشتكى سعد بن عبادة شكوى له، فأتاه النبي صلى الله عليه وسلم يعود مع عبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص وعبد الله بن مسعود؛ فلما دخل عليه وجده في غاشية أهله فقال: قد قُضي - أي مات - ؟ قالوا: لا يا رسول الله؛ فبكى النبي صلى الله عليه وسلم فلما رأى القوم بكاء النبي بكوا، فقال: ألا تسمعون؟ إن الله لا يعذب بدمع العين، ولا يحزن القلب؛ ولكن يعذب بهذا وأشار بيده إلى لسانه)- كانت إنسانيته صلى الله عليه وسلم متوازية؛ لم تكن شفقته بأصحابه ورقته بهم وحب الغامر لهم يمنعه من تصحيح الخطأ وإقامة الحق وتنفيذ القصاص العادل معهم، نعم إنه رجل توازن، يضبط مشاعره ويلجم عواطفه بلجام العقل والحق، عندما أخبر رسول الله بوفاة عثمان بن مظعون أسرع إلى بيته، فقد كان عثمان رضي الله عنه من الصحابة المقربين إلى قلبه (ص) فبكى النبي صلى الله عليه وسلم عليه بكاء كثيراً، ولكن عندما قالت زوجة عثمان : رحمة الله عليك أبا السائب لقد أكرمك الله؛ فقال النبي : وما يدريك أن الله أكرمه؟ والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي!! فالدموع التي سكبها(ص) على عثمان ما كانت لتحول بينه وبين تصحيح خطأ أو على الأقل مبالغ فيه، فالوفاء شيء والحق شيء آخر، - في لحظة ضعف كتب الصحابي حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش، يخبرها نية رسول الله فتح مكة، ليسدي معروفاً إليها عليها تحمي من عندها من أقاربه، فلما انكشف أمره أراد عمر بن الخطاب قتله، فقال صلى الله عليه وسلم له: إنه قد شهد بداراً، يا عمر، وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم“ (رواه البخاري). هذا مثال الصفح والغفران، وأما الرعاية والإشفاق من الأب الحاني فأمثلتها عديدة: لما استشهد الصحابة الثلاثة قادة غزوة مؤتة، أتى صلى الله عليه وسلم آل جعفر فقال: ”لا تبكوا على أخي بعد اليوم، ثم قال ادعوا لي بني أخي، فجيء بهم كأنهم أفرخ فقال: ادعوا لي الحلاق فأمره فحلق رؤوسهم“ (رواه أبو داود).

ثم قال صلى الله عليه وسلم مداعباً الصغار ”أما محمد فشبيه عمنا أبي طالب، وأما عبد الله فشبيه خلقي وخلقلي، ثم أخذ بيد عبد الله وقال: اللهم اخلف جعفرأ في أهله وبارك لعبد الله في صفقة يمينه، قالها

ثلاث مرات“ وجاءت أمهم فذكرت له يتمهم وجعلت تثير حزنه عليهم فقال: ”العيلة تخافين عليهم؟ أنا وليهم في الدنيا والآخرة“ (رواه أحمد). علاقة الرعاية هذه لم تقف عند ذوي قرابته فقط، بل تناولت الأمة جميعاً، قال صلى الله عليه وسلم ”والذي نفس محمد بيده ما علي الأرض من مؤمن إلا أنا أولى الناس به، فأيكم ترك ديناً أو ضياعاً فأنا مولاه، وأيكم ترك مالا فإلى العصابة من كان“ (رواه مسلم). وللطفولة عند الرسول صلى الله عليه وسلم عناية ورعاية ”فقد قبل الحسن بن علي يوماً وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالساً، فقال الأقرع إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحداً، فنظر إليه صلى الله عليه وسلم ثم قال ”من لا يرحم لا يرحم“ (رواه البخاري). وكم جعل من ظهره مطية لأحفاده ”فكان يصلي وهو حامل بنت أمته زينب فإذا سجد وضعها وإذا قام حملها“ رواه البخاري.

وكان ”إذا سجد وثب الحسن والحسين على ظهره فإذا رفع رأسه أخذهما بيده من خلفه أخذاً رقيقاً وبضعهما على الأرض فإذا عاد عادا حتى إذا قضى صلاته أقعدهما على فخذه“ (رواه أحمد) قال أنس بن مالك ”أرسلني صلى الله عليه وسلم يوماً لحاجة فخرجت حتى أمر على صبيان وهم يلعبون في السوق، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم من ورائي فنظرت إليه وهو يضحك فقال: ”يا أنس اذهب حيث أمرتك. قلت نعم أنا أذهب يا رسول الله (رواه أبو داود).

وقال أنس أيضاً ”خدمت النبي صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لي أف قط وما قال لشيء صنعته لم صنعته ولا لشيء تركته لم تركته وكان من أحسن الناس خلقاً“ (رواه الترمذي). وتجيش عاطفته صلى الله عليه وسلم عند موت العزيز على نفسه وقلبه (عمه حمزة) رضي الله عنه، فلما رجع صلى الله عليه وسلم من غزوة أحد جعلت نساء الأنصار يبكين على من قتل من أزواجهن، فقال لكن حمزة لا بواكي له، ثم نام فجئن نساء الأنصار يبكين على حمزة عنده، فاستيقظ وهن يبكين فقال أنتن ها هنا تبكين حتى الآن“ (رواه أحمد).

احترم صلى الله عليه وسلم علاقة الحب الطاهر بين قلبين، ودعا إلى تتويجها بالزواج فقال "لم نر للمتحابين مثل النكاح" (رواه ابن ماجه)،

ولما انفصلت بريرة عن زوجها مغيث، رآه صلى الله عليه وسلم يطوف خلفها يبكي حبا وهياما بها، ودموعه تسيل على لحيته، فقال لعمه العباس "ألا تعجب من حب مغيث بريرة ومن بغض بريرة مغيثاً" فأشفق على حاله وحاول إقناع بريرة بالعودة إلى زوجها فقال لها "لو راجعته" فقالت يا رسول الله أتأمرني؟ قال "إنما أنا أشفع" فقالت لا حاجة لي فيه، (رواه البخاري). - وكان هذا المنهج المتوازن لازمة للنبي صلى الله عليه وسلم حتى في سياسته لأهل بيته، نعم كان يفيض حبا لزوجاته، ويتفجر رقة و عذوبة لهن، لكن ما كان ليرضى أن يكون الحب لإحداهن مبيحا للاعتداء والتجاوز، تقول عائشة - رضي الله عنها - « ما رأيت صانعة طعام مثل صافية بنت حبي، أهدت إلى النبي إناء فيه طعام وهو عندي " تعني في بيتي" فما ملكت نفسي أن كسرتة فقلت: يا رسول الله ما كفارته؟ قال إناء بإناء وطعام بطعام.

ويتلمس الناحية الإنسانية لدى أزواجه، فقد بلغ أم المؤمنين صافية بنت حبي أن أم المؤمنين حفصة قالت عنها بنت يهودي فبكت صافية "فقال لها صلى الله عليه وسلم: إنك لابنة نبي، وإن عمك لنبي، وإنك لتحت نبي، ففيم تفخر عليك، ثم قال اتقي الله يا حفصة" (رواه الترمذي)

كان زوجها يتودد إلى زوجاته ويتقرب إليهن، ويفعل كل ما يقوي الرابطة، ويشد العلاقة، فكان إذا شربت عائشة - رضي الله عنها - من الإناء أخذه فوضع فمه موضع فمها وشرب، وإذا تعرقت عرقا (العظم الذي عليه لحم) أخذه فوضع فمه موضع فمها، وكان يتعامل معهن ببشريته التي فطره الله عليها، فلم يكن متكلفا ولا متعنتا، وكان هذا سر عظمته وإنسانيته، ومبعث الإقتداء بسيرته.

- إنسانيته مع أعدائه: من معالم إنسانيته الرائعة أنه رغم خلافه مع قومه وظلمهم له، وتعديهم عليه، وتأمرهم بالقتل والإبعاد والتحريض إلا أنه لم يضق صدره بهم ذرعا، ولم يدع عليهم؛ بل كان يفتح يديه، ويبتهل إلى ربه قائلا: (اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون)

وكاد أن يهلك نفسه من الحسرة والألم وكثرة الفكر، وطول الهم، وبذل الجهد عله أن ينقذ حيات قومه من الكفر وأخريتهم من النار، والقرآن يشير إلى ذلك بقوله: (فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا) (الكهف) وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: لما كذب الرسول صلى الله عليه وسلم قومه أتاه جبريل - عليه السلام - فقال: إن الله تعالى قد سمع قول قومك لك، وما ردوا به عليك، وقد أمر ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم فناداه ملك الجبال وسلم عليه وقال مرني بما شئت إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين (أي الجبلين) فقال صلى الله عليه وسلم: (بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله ولا يشرك به شيئاً) كان هذا أثناء هجرته إلى الطائف .

مارأت الدنيا إنساناً يملك أدوات القوة، وأسباب العقوبة، وموجبات الأخذ والتنكيل، ثم يترفع عن الثأر ويعلو فوق حظوظ النفس مثل محمد صلى الله عليه وسلم كان يحلم على أعدائه، ويصبر على من أساء إليه؛ بل كان تزيده الإساءة إحساناً وعفوا وكرماً، - جاء زيد بن سحنة اليهودي يتقاضى النبي صلى الله عليه وسلم ديناً كان عليه، فجذب ثوبه عن منكبه، وأخذ بمجامع ثيابه وأغلظ له، ثم قال: إنكم يا بني المطلب مطل؛ فانتهره عمر رضي الله عنه، وشدد له في القول، والنبي صلى الله عليه وسلم بيتسم!! ثم قال: إنا وهو كنا إلى غير ذلك أحوج منك يا عمر!! تأمرني بحسن الأداء، وتأمره بحسن القضاء، ثم قال له: لقد بقي من أجله ثلاث، ثم أمر عمر أن يقضيه ماله، ويزيده عشرين لما روعه؛ فكان ذلك سبب إسلام زيد « رضي الله عنه».

وهذا ثمامة بن أثال الحنفي سيد بني حنيفة، فلقد كتب إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاباً يدعو فيه إلى الإسلام فتلقى ثمامة رسالة النبي صلى الله عليه وسلم بالزراية والإعراض، وأخذته العزة بالإثم، فأصم أذنيه عن سماع دعوة الحق والخير، وزاد شره حتى قتل عدداً من المسلمين، فأهدر النبي صلى الله عليه وسلم دمه. وبعد مدة ليست بالطويلة عزم ثمامة على أداء العمرة، وقد كان المشركون قبل البعثة يحجون ويزورون البيت لكن على طريقتهم، وبينما كان في الطريق قريباً من المدينة إذا به يقابل سرية من سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسرته وهي لاتعرف أنه ثمامة، فوقع أسيراً في يد المسلمين، فأتوا به إلى المدينة وربطوه بسارية من سواري المسجد، منتظرين أن يقف النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه على شأن الأسير الجديد، وأن يأمر فيه بأمره ولما خرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى المسجد وهم بالدخول إذا به يفاجئ بثمامة بن أثال

مربوطاً في السارية، فقال للصحابة ممن حوله: ((أتدرون من أخذتم؟)) قالوا: لا يا رسول الله. فقال: هذا ثمامة بن أثال الحنفي فأحسنوا أساره)). ثم رجع النبي صلى الله عليه وسلم إلى أهله وقال: ((اجمعوا ما عندكم من طعام وابعثوا به إلى ثمامة بن أثال)). ثم أمر بناقته أن تحلب له في الغدو والرواح وأن يقدم إليه لبنها. وقد تم ذلك كله قبل أن يلقاه الرسول صلى الله عليه وسلم أو يكلمه. ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم أقبل على ثمامة يريد أن يستدرجه إلى الإسلام وقال: ((ما عندك يا ثمامة؟ فقال: عندي يا محمد خير. فإن تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذَا دَمٍ، وَإِنْ تُنْعَمُ تُنْعَمَ عَلَى شَاكِرٍ، وَإِنْ كُنْتَ تَرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ تُعْطَ مِنْهُ مَا شِئْتَ. فَتَرَكَهُ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَئِذٍ عَلَى حَالِهِ، يُوْتَى إِلَيْهِ بِالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، وَيَحْمَلُ إِلَيْهِ لَبَنَ النَّاقَةِ، ثُمَّ جَاءَهُ فَقَالَ: "مَا عِنْدَكَ يَا ثَامَمَةُ؟" فَقَالَ: لَيْسَ عِنْدِي إِلَّا مَا قَلْتُ لَكَ مِنْ قَبْلٍ. فَإِنْ تُنْعَمُ تُنْعَمَ عَلَى شَاكِرٍ وَإِنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذَا دَمٍ، وَإِنْ كُنْتَ تَرِيدُ الْمَالَ، فَسَلْ تُعْطَ مِنْهُ مَا شِئْتَ، فَتَرَكَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حَتَّى إِذَا كَانَ الْيَوْمَ التَّالِيَّ جَاءَهُ فَقَالَ: "مَا عِنْدَكَ يَا ثَامَمَةُ؟" فَقَالَ: عِنْدِي مَا قَلْتُ لَكَ. إِنْ تُنْعَمُ تُنْعَمَ عَلَى شَاكِرٍ، وَإِنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذَا دَمٍ، وَإِنْ كُنْتَ تَرِيدُ الْمَالَ أُعْطَيْتَكَ مِنْهُ مَا تَشَاءُ! فَالْتَفَتَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى أَصْحَابِهِ وَقَالَ: ((أَطْلِقُوا ثَامَمَةَ)) فَفَكَوَا وَثَاقَهُ وَأَطْلَقُوهُ. فَغَادَرَ ثَامَمَةُ مَسْجِدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَضَى، حَتَّى إِذَا بَلَغَ نَخْلًا فِي حَوَاشِي الْمَدِينَةِ قَرِيبًا مِنَ الْبَقِيعِ فِيهِ مَاءٌ أَنَاخَ رَا حَلَّتْهُ عِنْدَهُ، وَتَطَهَّرَ مِنْ مَائِهِ فَأَحْسَنَ طَهْرَهُ، ثُمَّ عَادَ أَدْرَا جَهُ إِلَى الْمَسْجِدِ، فَمَا إِنْ بَلَغَهُ حَتَّى وَقَفَ عَلَى مَلَأٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. ثُمَّ اتَّجَهَ إِلَى الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ. وَاللَّهِ مَا كَانَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ وَجْهُ أَبْغَضَ إِلَيَّ، مِنْ وَجْهِكَ، وَقَدْ أَصْبَحَ وَجْهَكَ أَحَبَّ الْوَجْوهِ كُلِّهَا إِلَيَّ، وَاللَّهِ مَا كَانَ دِينَ أَبْغَضَ إِلَيَّ، مِنْ دِينِكَ، فَأَصْبَحَ دِينَكَ أَحَبَّ الدِّينِ كُلِّهِ إِلَيَّ، وَاللَّهِ مَا كَانَ بَلَدٌ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ بَلَدِكَ، فَأَصْبَحَ بَلَدَكَ أَحَبَّ الْبِلَادِ كُلِّهَا إِلَيَّ. ثُمَّ أَرْدَفَ قَائِلًا: لَقَدْ كُنْتُ أَصْبَتُ فِي أَصْحَابِكَ دَمَا. فَمَا الَّذِي تَوَجَّهَ عَلَيَّ؟ فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ((لَا تَتْرِبَ عَلَيْكَ يَا ثَامَمَةُ. فَإِنَّ الْإِسْلَامَ يَجِبُ مَا قَبْلَهُ)). وَبَشَّرَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْخَيْرِ الَّذِي كَتَبَهُ اللَّهُ لَهُ بِإِسْلَامِهِ. فَانْبَسَطَتْ أَسَارِيرُ ثَامَمَةَ وَقَالَ: وَاللَّهِ لِأَصْيَبِينَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَضْعَافٌ مَا أَصْبَتُ مِنْ أَصْحَابِكَ، وَلَأَضَعَنَّ نَفْسِي وَسَيْفِي وَمَنْ مَعِي فِي نَصْرَتِكَ وَنَصْرَةِ دِينِكَ. ثُمَّ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنْ خَيْلِكَ أَخَذْتَنِي وَأَنَا أُرِيدُ الْعِمْرَةَ. فَمَاذَا تَرَى أَنْ أَفْعَلَ؟ فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ((امْضِ لِأَدَاءِ

عمرتك، ولكن على شرعة الله ورسوله)). وعلمه ما يقوم به من المناسك.

وروى البخاري ومسلم من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كنا مع النبي (ص) في غزوة ذات الرقاع، فكنا إذا وجدنا شجرة ظليلة تركناها للنبي (ص) فنام تحت شجرة وعلق سيفه بغصن من أغصانها، فجاء رجل مشرك، فوجد النبي (ص) نائماً، ووجد سيفه معلقاً، فأخذ المشرك السيف ورفع في وجه النبي (ص) وهو نائم، وقال: من يمنعك مني الآن يا محمد؟ فنظر إليه سيد المتوكلين وقال: الله! فسقط السيف من يد المشرك، فأخذ المصطفى (ص) السيف ورفع على المشرك وقال: فمن يمنعك مني الآن؟ فقال المشرك: كن خير أخذ يا محمد! - يعني: يعني خلقك وحلمك - فقال الرسول (ص) لا، حتى تومن بالله ورسوله، فقال المشرك: لا، إلا أني أعاهدك ألا أقاتلك، أو أكون مع قوم يقاتلونك، فعفا عنه (ص) وخلقى سبيله، فانطلق المشرك إلى قومه يقول: يا قوم! والله لقد جئتمكم من عند خير الناس!.

وكان (ص) يقسم الغنائم فقال له ذو الخويصرة: اعدل يا محمد في القسمة فإن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله فقال له الرسول (ص) ويحك فمن يعدل إن كنت لا أعدل؟ خبت وخسرت إن كنت لا أعدل! فقال عمر دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق! فقال (ص) لا يا عمر حتى لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه!.

- إنسانيته بالحيوان: كان صلى الله عليه وسلم يعتبر الحيوان كياناً معتبراً ذا روح يحس بالجوع ويشعر بالعطش، ويتألم بالمرض والتعب، ويدركه ما يدرك الإنسان من أعراض الجسد؛ لذا رأيناه صلى الله عليه وسلم تتألم نفسه ويرق قلبه لحيوان ألم به الجوع ونال منه الجهد، فعن سهل بن الحنظلية - رضي الله عنه - قال: «مر رسول الله صلى الله عليه وسلم على بعير قد لصق ظهره ببطنه؛ فقال: «اتقوا الله في هذه البهائم المعجمة فاركبوها صالحة وكلوها صالحة»، ما أعظم رسول الله (ص) رغم مسؤولياته الجسام ومهامه العظام إلا أنه لم تشغله عن مراقبة ما يحدث لحيوان من إساءة بالغة، وإهمال من ذويه؛ فنصح بالإحسان والرعاية، لقد وسعت شففته وإنسانيته (ص) فراخ طائر وأبت أن يفرق بينهم، يقول عبد الله بن عمر: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر، فانطلق لحاجته فرأينا حمرة (طائر صغير) معها فرخان فأخذنا فرخيها؛ فجاءت الحمرة فجعلت

تفرش جناحيها؛ فجاء النبي (ص) فقال: من فجع هذه بولدها؟ ردوا ولدها إليها.  
وأخبر (ص) أن امرأة دخلت النار في هرة، حبستها لاهي أطعمتها ولا تركتها  
تأكل من خشاش الأرض. وذكر أن رجلا دخل الجنة في كلب سقاه من العطش.  
أيها السادة ، هذا غيض من فيض إنسانية رسول الإنسانية صلوات ربي وسلامه  
عليه وعلى آله الطيبين، وأصحابه الغر الميامين، وعلى من سار على نهجه واقتفى  
أثره إلى يوم الدين.



# نحو منهجية جديدة للتعامل مع القرآن الكريم

---

د. أحمد نوفل

أستاذ بكلية الشريعة في الجامعة الأردنية

---

النص الكامل للمحاضرة التي أُلقيت تحت نفس العنوان بقاعة المحاضرات

بالمكتبة الوسائطية للمؤسسة بتاريخ 26 يناير 2012



## بين يدي هذه الكلمة

هذه المداخلة أو المحاضرة أو الكلمة أقرب إلى العناوين أو النقاط التذكيرية وضعتها بين يدي لأتذكر ما أريد الحديث عنه من نقاط فهي رؤوس أقلام كما يقال أو عناوين دون تفصيل المضامين و طرح أسئلة أكثر مما هي إجابات وتقريرات. ونقاط المحاضرة شيء و الكلام المطبوع المكتوب بين يدي القارئ شيء آخر.

فاعتذر إن كانت كلماتي في صورتها الخام هذه أقل من أن تكون جاهزة للطباعة قبل أوانها .. لرغبة إخواننا في المركز الثقافي في مسجد الحسن الثاني بطباعتها.

### القرآن الكريم

### أعظم معجزة

كانت الكتب السماوية منفصلة عن المعجزات الشاهدة بمصدرها الرباني، فلما نزل القرآن الكريم أتحدت فيه الرسالة و المعجزة.

ولئن كانت معجزة كل نبي محدودة بزمانها والقوم فإن معجزة القرآن ممتدة عبر الزمان و المكان و عبر الأمم و الأقوام. وصدق شوقي إذ قال :

جاء النبيون بالآيات فانصرمت و جئتنا بكتاب غير منصرم

ولئن كان المقصود من معجزات الرسل الكرام إخضاع العقل، فإن من أوجه أوجه الإعجاز أنه يقنع العقل ولا يخضع العقل.

وإن من أعظم أوجه الإعجاز ألا تتناهى أوجه الإعجاز.

ولذلك لا عجب أن يكتشف العقل الإنساني كل يوم لونا جديدا ووجهها جديدا

من الإعجاز.

فلا ضير أن يكون هناك إعجاز بياني وإعجاز تشريعي وإعجاز علمي وإعجاز نفسي وإعجاز موسيقي وإعجاز حضاري ، وإعجاز عددي رقمي.. بل ما لا ينتهي من الأوجه. ما الضير؟

فلا يضيق منا الصدر بأي لون.. وإن لم يقل به أسلافنا الكرام، أليس القرآن لا تنقضي عجائبه؟ ويفنى الزمان ولا تنفذ كنوزه ولا يفنى عطاؤه؟

## أصداف وآليء

### الألفاظ والمعاني كالأصداف واللؤلؤ

وإنما تقصد الألفاظ لما تحمل من المعاني و ألفاظ القرآن معانيها الدر والجوهر، وإنما الألفاظ حاملة لهذه المعاني ، ولا ينفك -بطبيعة الحال- اللفظ عن المعنى ، والقرآن -بالطبع- هو اللفظ والمعنى والمقصود أن نفتح مغاليق الألفاظ -إن جاز التعبير- لاستخراج جواهرها وآليئها ولا بد من الغوص عميقا وراء المعنى كما كان ابن عباس يقول: «غص يا غواص» يقصد وراء آليء معاني القرآن بالغوص في بحار الألفاظ . وكما كان ابن مسعود يقول: «ثوروا القرآن!».

وما الألفاظ إلا كالزهر في الأكمام ، وبالتفسير يتفتح الزهر عن بديع الألوان وفواح الروائح العطرة والشذى العبق.

فالتفسير استخراج لهذه الجواهر.. و لا تكون المعادن الثمينة على سطح الأرض وقارة الطريق ، ولكنها تحتاج إلى بحث عميق.

هكذا التفسير، وهكذا هي الألفاظ وهكذا هي المعاني.

## القرآن والأكوان كتابان الأول يرشد إلى الثاني والثاني يشهد للأول

القرآن كلام الله والكون أفعال الله والقرآن الكريم سمي آياته آيات وسمى آيات الكون بالاسم نفسه: آيات فقال: «تلك آيات الكتاب المبين» وقال: «وفي الأرض آيات..» والآيات في هذا أكثر من الحصر، وارجع على سبيل المثال إلى سورة فصلت تجد كلمة الآيات موزعة بالتساوي بين آيات القرآن وآيات الأكوان.

وارجع إلى سورة الروم بل إلى القرآن كله تجد هذه الظاهرة ظاهرة. وصدق الله إذ يقول:

«سنريهم آياتنا في الأفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق..» أي حتى تصدق آيات الأكوان آيات القرآن. «وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها..».

وإنه كلما ازداد العلم وزادت الكشوف تجلت معاني القرآن أكثر، فلن يزيد التقدم العلمي كتابنا العظيم إلا القارونقاً وبهاء وإشعاعاً. فنحن نفرح بالكشف ونسعد بالعلم، ولا يغتم من العلم إلا كتب تحوي الخرافات.. لا الكتاب الذي هو الحق المطلق المبين.

### ما وجه الحاجة إلى التفسير؟

أليس القرآن كتاباً مبيناً وآياته بينات؟

أليس الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم قد بينه البيان العملي بعد كونه في ذاته بيناً مبيناً؟

أليس الله قد شهد أنه يسر القرآن للذكر؟ فقال: «ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر؟»

بعد كل هذا ما وجه الحاجة إلى التفسير؟

أقول: الحاجة إلى التفسير لضمان حسن الفهم أولاً، ولضمان سعة الفهم وشمول الفهم إذ قد ينقذح في الذهن بعض المعنى أو جزء المعنى، و التفسير يوصل المعنى إلى بعض صور تمامه. ثم تنزيل التنزيل على الواقع. ثم دفع تشابه المتشابه ثم منع الشطط والانحراف في الفهم.

كل هذا بعض وجه حاجة الكتاب إلى التفسير بل حاجة البشر إليه.

## التراكم المعرفي معاون في تفسير القرآن

لا يستقيم بحال أن تفسر القرآن غير مستفيدين من التراكم المعرفي الهائل والكشوف العلمية، وتجلي السنن الاجتماعية، والانفجار المعلوماتي و المعرفي عن الكون، وما تكتشفه المراصد و المركبات الفضائية، والمختبرات والتجارب، وثمرات العقول، والفنون والآداب.. كل هذا معاون و مساعد مجل لمعاني وأفاق النص القرآني. فالحفريات التاريخية، والآثار، والكيمياء، والفيزياء، والفلك، والأحياء و الرياضيات، و الجيولوجيا، والصوتيات، والفنون بأنواعها، والآداب كلها، وكل معارف الإنسان يمكن توظيفها في فهم القرآن.

و العظيم أنه ما من حقيقة علمية تناقض حقيقة قرآنية في الكتاب العظيم. ولكن نتحدى أن تستقيم معلومة في الكتب السماوية الأخرى المحرفة مع معلومة أو حقيقة علمية.

## العلاقة بين القرآن والروايات الحديثية..

الربط بين الآيات القرآنية والسنة فن يحتاج إلى دراية ودربة وخبرة ولا يحسنه كل أحد.

وهو أي الربط قد يوقع أحيانا في اللبس لا البيان ولعل من أوضح الأمثلة قوله تعالى: «يوم يكشف عن ساق». وقوله: «إلا إذا تمنى..».

وارجع إلى قوله تعالى: «فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان.» ففي الروايات أن الأمر للملائكة ووفق النص القرآني فإن الأمر للمؤمنين أو ارجع إلى قصة موسى و العبد الصالح... إلخ

فالقرآن لم يسم له اسما ، وفي الروايات ، وإن صحت ذكر اسمه ، فما العمل ؟ العمل أن ندرس هذا في الحديث الشريف.

ومثال آخر أن الله يخاطب نساء النبي بقوله: «إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا».

وفي الروايات أن نساء النبي صلى الله عليه وسلم لسن من أهل البيت فتأمل وتدبر.

وإذا كان تفسير القرآن بالقرآن يحتاج إلى فن ودراية وخبرة فكيف تفسيره بالروايات ؟ !

## الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية

كل سورة هي وحدة موضوعية واحدة، و تفسيرها ينبغي أن يلحظ هذا الأمر. فسورة النور مثلا، موضوعها، تجفيف منابع جريمة الزنا، فكل ما فيها يمت إلى هذا الموضوع، و تأمل: بدأت السورة بحد الزنا، ثم بحد جريمة تتصل بها مباشرة هي جريمة القذف عموما، ثم قذف الزوجات خصوصا، ثم انتقل إلى حديث الإفك. ثم اللباس و الزينة و من يجوز إظهار الزينة أمامهم ثم آداب الاستئذان بتفاصيلها..

و الأمر بتزويج الأيامي أي من لا أزواج لهم ولا زوجات لهم.

ثم الأمر بتحرير العبيد وإعطائهم كرامتهم حتى يترفخوا عن مثل هذه الجريمة.

ثم الأمر بعدم إكراه الفتيات على البغاء وهذا ما كان يصنعه المنافقون.

وهكذا.. فالسورة وحدة موضوعية واحدة و تفسر في ضوء هذه الحقيقة.

## التفسير السنني

أو التفسير وفق السنن الاجتماعية و الكونية و النفسية. و هذا باب يطول الحديث فيه، و لكنني أقتصر على بعض الأمثلة: فقله تعالى: «أو لم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها و الله يحكم لا معقب لحكمه و هو سريع الحساب» الرد 41.

«أفلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون» الأنبياء 44.

هذا النص الكريم الذي تكرر في سورتين أطلق عليه أو اسميه: سنة أو قانون تفكك الحضارات بنقصها من أطرافها.



فالحضارات الرومانية و ما قبلها و ما بعدها كانت تقوم على نظرية:

المركز و الأطراف ، و تحرص أن تتمدد الأطراف و تتباعد لحماية القلب و المركز، تماما كما صنعت أمريكا باحتلال العراق و أفغانستان ، و اعتبرتهما الحديقة الخلفية للبيت الأبيض... ثم خرجت منهما!

و في هذا قوله تعالى في سورة آل عمران تعقبا على غزوة أحد : «ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين» .

و قوله تعالى: «واعلموا أن الله يحول بين المرء و قلبه.» الأنفال.

فسرها مفسرون بأن الله مشيئته مطلقة يفعل ما يشاء و يتصرف في كونه و خلقه كما يريد. وهذا حق بالطبع.

و المعنى السنني للآية فيما أرى أن الإنسان إذا اعتاد شيئا حفر في عقله و أعصابه و أصبح غير متحكم في أهوائه نتيجة الإدمان... فصار كمن حيل بينه و بين ما يريد و يشتهي أو حيل بينه و بين قلبه.

## بلسان عربي مبين

ذكر القرآن حقيقة أن القرآن عربي لا يقل عن عشر مرات.. و لو كان المقصود مجرد البيان أنه نزل بهذا اللسان من حيث لغته ، فهذه حقيقة بديهية تدرك لأول نظرة و لأول وهلة. و إنما أن تتكرر هذا العدد فإن وراء الأمر ما وراءه و أعتقد أن من دلالات هذا الأمر:

1- أنه لا يعد قرآنا إلا ما كان باللسان العربي فكل ترجمة إنما هي ترجمة المعنى و التفسير.

2- أن القرآن يفهم وفق المعجم العربي و المعاني التي للمفردات العربية وفق سياق

الكلام اللغوي والسياق الاجتماعي والتاريخي.

3- أن القرآن يفهم وفق أساليب العرب في البيان من مثل الحقيقة و المجاز، والكناية ، والتشبيه و الاستفهام و ما إليه.

4- أن يفهم وفق النحو العربي.

## التأويل.. و التفسير

يقول الله تعالى: « هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله...» وفق المعنى اللغوي.

لئن كان التفسير هو المعنى اللغوي للنص، فإن التأويل هو التحقق الواقعي للمعنى، و أيلولة المعنى في الواقع.

ولهذا كان ابن جرير و ابن كثير و غيرهم - مع الإجلال و التوقير- يفسرون المعنى من مثل قوله تعالى: «لتفسدن في الأرض مرتين و لتعلون علوا كبيرا...»

أقول: لئن فسروا النص بالبحث في المعجمات و الروايات ، فإن هذا لا يسعنا و لا يسعنا و إنما علينا البحث في الواقع و الحياة العملية، لنرى كيف تجلى المعنى.

## ضمانات حسن الفهم من داخل النص القرآني

1- القرآن مبين ، و آياته بينات ، و الرسول صلى الله عليه و سلم مهمته أنه يبين «للناس ما نزل إليهم» ، فهو يزيد البيان بيانا.

2- يقع الناس في التباس الفهم أو سوء الفهم من عدم التدبر، أو التسرع في الفهم بما ينقدح في الذهن للوهلة الأولى و بادي الرأي.

3- أودع القرآن الكريم في داخل النص ما يضمن سلامة الفهم و حسن الفهم لكن لمن يتأمل و يتدبر.

4- نماذج على هذا قوله تعالى في سورة يوسف: «و هم بها لولا أن رأى برهان ربه». و كذلك قصة إبراهيم في سورة الأنعام. و كذلك من سورة النور: «الله نور السماوات و الأرض...» و غير ذلك من الشواهد.

أما آية سورة يوسف فإن النص الكريم قال بين يدي مشهد المراودة من امرأة العزيز قال: « و لما بلغ أشده آتيناه حكما و علما و كذلك نجزي المحسنين.» فشهد له بالعلم و الحكمة و الإحسان. أليست هذه ذخيرة و زادا ندخل بها إلى فهم النص لتمنع اللبس.

و في أثناء المشهد المذكور قال: «معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون.»

و بعده قال: « كذلك لنصرف عنه السوء و الفحشاء إنه من عبادنا المخلصين.» ثم إن النص ذاته ذكر امتناع الهم لوجود البرهان فكيف يقال وقع الهم من يوسف؟ أما مشهد سورة الأنعام و محاجة إبراهيم لقومه، فالنص قاطع أن إبراهيم كان يناظر ليهدي و لم يكن ينظر ليهتدي!

فقد قال القرآن قبل النص: « و إذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة إني أراك و قومك في ضلال مبين.» . «و كذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات و الأرض و ليكون من الموقنين.»

ثم ذكر مشهد المحاجة لقومه.

و قال في أثناؤه: «لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين.» هل هذا كلام من يبحث لنفسه؟

ثم لاحظ المنهجية المتدرجة من الكوكب إلى القمر إلى الشمس إلى الله الأكبر المطلق سبحانه.

ثم تأمل التعقيب الحاسم: «و تلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم.»

فكيف يقال إن إبراهيم كان يبحث عن الله؟

وأما آية النور «الله نور السموات..» فقد جعل الله مفتاح الفهم في آخر الآية : «يهدي الله لنوره من يشاء» فالمقصود من هذا المثل نور هداية الله في قلب العبد فتأمل !

## القرآن نص مفتوح و معانيه لا تنتهي و لا يزال يتجلى و يتجدد مع الزمان

القرآن كلام الله ، غير محدود ، و اللسان الذي نزل به القرآن بحر بلا حدود و عطاء غير محدود، والعقل الذي يفسر القرآن قدرته غير محدودة، و علوم الكون التي تساعد في تفسير القرآن و الوقائع الحياتية متجددة لا تنتهي، فالتقت مطلقات أربعة اللغة و العقل و الكون و الوقائع المتجددة تجعل التفسير عطاء بلا حدود، ومعنى مفتوحا مطلقا متجددا و بحرا لا ينفد.

سورة الروم نموذجاً.

إني أقرأ في سورة الروم ملامح الروم الجدد، أو الحضارة الرومانية الحديثة أعني الحضارة الغربية..... الحضارة البيضاء المادية، و قد توصلت بقراءة في سورة الروم إلى ملامح الحضارة الغربية و لخصتها في تسع نقاط:

1- الشرك.

2- جحد الآخرة أو نسيانها.

3- الغرور.

- 4- الربا، وهي السورة المكية الواحدة التي ذكرت الربا: «وما آتيتم من ربا ليربوا في أموال الناس..»
- 5- مقاومة الفطرة، «فأقم وجهك للدين القيم فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله..»
- 6- الإفساد، «ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس»
- 7- الفرح بما عندهم من العلم.
- 8- اكتشاف آيات الكون و الإعراض عنها.
- 9- اتباع الهوى، و تقلب الإنسان من حال إلى حال وفق هواه.

## التفسير في ضوء النسق و السياق

سورة التين نموذجاً.

سورة الماعون نموذجاً.

النسق هو النظام و السياق المترابط و الوحدة الجامعة.

واعلم أن كل سورة من سور القرآن الكريم نسق ، و لها نظام واحد، والتفسير مع إسقاط هذا الاعتبار يشنت المعنى بل يضيعه. و التفسير في ضوء النسق يلتقط المعنى الصحيح.

ففي سورة التين قيل في تفسير «أحسن تقويم» انه كون الإنسان يمشي منتصب القامة على رجله و يأكل بيديه، و هذا ليس المعنى في ضوء النسق.

فالنسق كله كلام عن أماكن تنزيل الدين و قسم بهذه الأماكن. فأما التين والزيتون فإشارة إلى فلسطين أرض هاتين الثمرتين والإشارة بهذا إلى نبوة إبراهيم ، و طور

سينين إشارة إلى مكان تنزل النبوة على موسى ، وأما البلد الأمين فمكة و هو مكان تنزل الدين و الوحي على خاتم الرسل عليهم السلام.

فهذه أهم أماكن تنزل الدين ، و لذا قال الله: «فما يكذبك بعد بالدين» ؟ فتأمل!

فكأن النسق صار كالتالي: أقسم بالدين مرموزاً له بأهم أماكن تنزل الدين ، أني خلقت الإنسان على فطرة الدين ، ثم انتكس بالارتداد عن فطرة الدين ، إلا الذين امنوا و عملوا الصالحات فقد حافظوا على فطرة الدين ، فما يكذبك بعد بالدين ، أليس الله بأحكم الحاكمين في هذه الدنيا و يوم الدين؟

و من ضمن النسق القرآني أن كل سورة مع سابقتها في ترتيب المصحف تشكل نسقاً ، و الأمثلة الحاضرة في كل السور لكنه لا بد من مثل. فتأمل مثلاً سورة البروج كيف انتهت «بالحفظ» في «لوح محفوظ» لتكون سورة الطارق محورها «الحفظ» «إن كل نفس لما عليها حافظ».

فكأن سورة الطارق التقطت الخيط و شكلت منه نسيجها المحوري: «الحفظ» فالنجم الثاقب إشارة إلى النجوم الرجوم التي تحفظ السماء «وحفظاً من كل شيطان مارد» فالله يقسم بهذه النجوم التي تحفظ السماء أنه حفظ الإنسان.

وهذا ليس مثلاً معزولاً أو منفرداً ، ولكنه كما أسلفت نسق مطرد. ولو أردنا الشواهد لأكثرنا بفضل الله.

فتأمل مثلاً كيف انتهت سورة المرسلات بالاستفهام: «فبأي حديث بعده يؤمنون؟» لتبدأ بعدها سورة عم أو النبأ بالاستفهام «عم يتساءلون؟»

و تأمل هذا الربط بين سورتي الفيل و قريش: «فجعلهم كعصف مأكول». «إيلاف قريش» ألم تر أنهما نسق واحد؟

وتأمل النسق في الإيقاع الموسيقي بين سورتي المسد و الإخلاص: «في جيدها حبل من مسد». «قل هو الله أحد».

والقمر و الرحمن: «في مقعد صدق عند مليك مقتدر». «الرحمن».

و تأمل كيف افتتحت آل عمران بفاتحة أعظم أية في سورة البقرة: «الله لا إله إلا هو الحي القيوم» فجاءت فاتحة آل عمران «الم الله لا إله إلا هو الحي القيوم»  
و تأمل سورتي الطور و النجم ختام الأولى و فاتحة الثانية: «و من الليل فسبحه و ادبار النجوم». «والنجم إذا هوى.»

و هذا أمر يطول جدا لو جئنا نستعرض مزيدا من الأمثلة، لكنني كتبت فيه مجلدين - بفضل الله- و أسميته: «التوأمة بين السور القرآنية» بينت فيه الروابط العديدة التي تنتظم كل سورتين جارتين: الفاتحة و البقرة، و البقرة و آل عمران..إلى آخر المصحف.

و لنختم الأمثلة بفاتحة الكتاب و تعانقها مع سورة البقرة.

فبينما كان أعظم مطلب تضمنته سورة الفاتحة: «اهدنا الصراط المستقيم» فقد جاءت سورة البقرة تحقيقا و استجابة لهذا الدعاء: «ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين.» فكأنه يقول: يا من طلبتم الهدى... هذا هو الهدى.. و الله اعلم.

و هذه بعض أنساق القرآن ضربتها على سبيل المثال .

و السلام عليكم





# المذهب المالكي بين دعوى الخلو من الدليل و الإنباء عليه

---

د. مصطفى بن حمزة  
رئيس المجلس العلمي بوجدة

---

النص الكامل للمحاضرة التي أقيمت تحت نفس العنوان بقاعة المحاضرات

بالمكتبة الوسائطية للمؤسسة بتاريخ 22 فبراير 2011



بسم الله الرحمن الرحيم ، و صلى الله و سلم وبارك على سيدنا محمد و على آله و صحبه أجمعين ، السادة الحضور الكرام ، قد يبدو للوهلة الأولى أن الموضوع يتعلق بفحص المذهب المالكي تحديداً، و قياس مدى علاقته و صلته بالأصول الإستنباطية و بالكتاب و السنة خصوصا . و هذا هو الوجه الظاهر في الحقيقة من المحاضرة. و لكنني أرى أن العناية بهذا الموضوع بالذات مسألة أساسية، ينبغي أن يهتم بها المجتمع كله، و الفاعلون الإجتماعيون جميعا ؛ لأن لهذا الموضوع تداعياته الخطيرة على مستويات الإستقرار، و الإنصراف للعمل الجاد أو المضني في التآكل و الخلاف و في التحول ، و في رسم خريطة دينية مخالفة هي الآن ترسم سواء أدركنا ذلك أم لم ندركه إن الموضوع واسع و كبير، و ثقيل أيضا؛ لأن المذهب ليس قول رجل إنما هو مدرسة لها رجال تتابعوا، و كان داخل هذه المدرسة نقاش، و حينما ننتهي إلى الإقرار بأن مذهبا ما يتشكل في غيبة الدليل، فمعنى ذلك أن الأمة تواطأت على الإعراض عن السنة فهذه ثلثة كبيرة، و أمر خطير توصف به الأمة، و أنها كانت قليلة الدين، و أنها لم تكن تعبأ بالكتاب و السنة. وإن كانت هذه الظاهرة جزئية فقط ، و لكنها تنداح و تتوسع لتشمل المذاهب كلها فيما بعد ، بلا استثناء؛ لأن هذا الأمر لم يقتصر على المذهب المالكي، فقد يبدأ عندنا في المذهب المالكي، و قد رأينا ما قيل في المذهب الحنفي و ما كتب فيه ، و نعلم متى وكيف تم الحديث عن المذهب الشافعي ، و الأمر لازال فيه تفريخ و لازال فيه توسيع .

و الخلاصة من هذا كله هي أن يقول بعض الناس إنكم استرحتم من المذاهب جميعها ، و إن أئمة المذاهب الجدد هم الذين سيفتون ابتداء من هذه اللحظة، فلا اعتبار لما قاله مالك و لا المالكية ، و لا لما قاله أبو حنيفة و لا الحنفية ، لأن أولئك أناس مشهود عليهم بأنهم كانوا يتركون الدليل و لا يهتمون به. و حينئذ سنجد أنفسنا في عالم جديد، يفتي فيه أناس لا يعتبرون السابقين في علمهم، و لا تستبين عندهم رؤيا الإجتهاد ، و لا يتوفرون على النصاب العلمي و الدرجة الأخلاقية التي توفرت لأناس عرفناهم من خلال تراجمهم . نحن عرفنا مالكا و مستواه، و ما قال أحد في مالك بأنه مبتدع أو ضعيف التدين ، أو شيء من هذا، وإنما أجمعت الأمة على فضله ، و على علو قيمته ، و على تقواه . و قل مثل هذا على الكثير من العلماء . إذا فالقضية و إن كانت تتعلق من حيث العنوان بمذهب، لكنها لا تتوقف

عند مذهب معين ، و لن تنتهي حتى تأتي على جميع المذاهب، وحتى تنتهي في نهاية المطاف إلى صورة أخرى، أو حالة أخرى تفاجأ فيها الأمة بكثير من الأقوال الشاردة. و أنا أقول : إننا في جميع ما عشناه في المرحلة الأخيرة، من حالات من الشرود عن الدين، هناك نوع من المباغثة أي أن هناك فتاوى باغتت الأمة ، وأحدثت إشكالات للأمة في علاقتها مع الآخرين ، و في علاقة الناس فيما بينهم، و الغريب أنا لا نجد من وراء هذه الفتاوى أحدا من العلماء المشهورين . وإنما هي أفكار طرأت و عنت لأناس ، بعد قراءات متعجلة للنصوص. و حيث لم يكن هؤلاء من أهل العلم و التمحيص ، ففاجأوا الأمة بهذه الأشياء. فمن أجل أن نعيد الأمور إلى نصابها و نضبط الأشياء، و من أجل أن يعرف الإنسان كيف يتدين لابد من طرح هذا السؤال، و أقول إن طرحه واجب على مستوى العالم الإسلامي كله ؛ لأن هذا الحديث يعم جميع البلاد الإسلامية ، و أنتم تعرفون ما تعيشه البلاد الإسلامية في هذا الباب . إذن؛ في محور أول سأحاول أن أتطرق له و أن أرد هذه الدعوى الأولى التي أجدها الآن حاضرة في مساجدنا بكثرة ، دعوى الإستغناء المطلق عن جميع المذاهب ، قبل أن ألم - إن شاء الله - بمحور ثان و هو مفهوم الدليل عند علماء الأمة ، ثم المحور الثالث يتعلق بصلة المذهب المالكي خصوصا بالدليل. و لم ينفصل المذهب المالكي عن دليل مطلقا. وإنما يجب أن نعرف كيف استعمل المذهب المالكي الدليل، و المنهج الذي وظفه المذهب المالكي في التعامل مع الأدلة ، و أقول منذ الآن : إن القضية ليست من باب ما يمكن أن يتحدث به عموم الناس ، هذه أشياء علمية دقيقة و تخصصية، فحينما نتحدث عن قضية أصولية ، فإما أن نكون مدركين لمباحث علم الأصول ، و إما أن لا نكون . و لكن الذين لا يدركون مثل هذه الأشياء يستريحون من حيث يتعب الناس، و يجازفون بالكلام الواسع العريض . لذلك أقول إن هنالك الآن دعوة ترى ، و لها كتب رائجة الآن في أكثر الأسواق ، تتمحور حول فكرة أن هذه المذاهب عموما، و طبعا المذهب المالكي أيضا مشمول من حيث أنه جزء من هذه الدعوى التي تتلخص في كون هذه المذاهب هي مجرد ابتداعات ابتدعتها الناس ، هي في الأقصى فهوم و آراء لأهل العلم . و أن الله تعالى لم يكلف أحدا بهذه المذاهب . و أن المطلوب من الإنسان هو الكتاب و السنة ، لأن الكتاب و السنة معصومان ، و آراء العلماء غير معصومة ، فلا يمكن متابعة آراء العلماء غير المعصومة ، و ترك المعصوم الذي هو الكتاب و السنة . و هذا بحسب الظاهر كلام جميل . و أن هذه الأمة الآن مطالبة

بأن تعود إلى الكتاب والسنة ، وأن تقرأهما ، وأن تتعامل فقط مع هذه المصادر . كتاب صحيح البخاري و مسلم يكفي للإستقاء و الإستمداد ، و لا داعي بعد ذلك لشيء غير هذا الأمر . و أن الصحابة رضي الله عنهم لم يكن لهم مذهب فقهي يرجعون إليه . هذه كلمات كلها جميلة من حيث العنوان . و لكنها كلها خاطئة من حيث الهدف . لماذا ؛ لأن المذاهب الفقهية هي بالأساس مدارس في قراءة النص، هي لم تنتصب لتكون بديلا عن الكتاب و السنة ، وإنما وجدت لتقرأ الكتاب و السنة قراءة علمية فاحصة . أنا لا أعتبر المحامي الذي يفسر لي القانون بديلا عن القانون ، و لكنني أعتبر أن المحامي هو أفضل من يفهم القانون . و أنا لا أعتبر أن الطبيب الذي تخرج من كلية من الكليات هو بديل عن علم الطب بل مؤد لحقائق الطب بحسب وسعه ، و قد يكون موفقا و قد لا يكون. فما جرى الآن هو في تاريخ العلم دائما أن هنالك أناسا يتولون تقريب المعارف، و تقديم المعارف ، و تصحيح الأخطاء، و يقربون المعرفة المتخصصة في حقل من الحقول إلى الناس خصوصا في ميدان العلوم الشرعية، و لكنهم لا يكونون بعد ذلك بديلا مطلقا . و إنما يكونون وسطاء مقربين لهذا الأمر ، و يظهرون لنا فهمهم ، و يمكننا نحن ، حينما نصل درجة من العلم ، أن نسألهم عن دليلهم . و سيجيبون ، و سيقولون لك جميعهم إذا أتاكم ما يخالف الحديث فاضربوا به عرض الحائط . العلماء لهم هذه الشجاعة ليقولوا هذا الأمر . أنا لا أتصور أنه يمكن أن ينشأ عند المسلمين مذهب كيفما كان ، في المذاهب السنية بعيدا عن الأخذ بالمصادر ، بالكتاب و السنة خصوصا ، لماذا ؟ لأن المطلوب في الفقه أو في النظر الفقهي هو الحكم الشرعي فأنت حينما تذهب إلى الفقيه تسأله عن الحكم الشرعي. و ما هو الحكم الشرعي ؟ الحكم الشرعي هو خطاب الله المتعلق بأفعال المكلفين من حيث إنهم مكلفون إقتضاء ، أو تخيرا ، أو وضعاً . جميع أفراد الأمة المسلمة متفق على أن الحكم المطلوب في الفقه هو الحكم الشرعي ، و لذلك العالم حينما نصل به إلى مستواه ، الذي تحدث عنه الشاطبي ، نسميه موقعا عن الله ، و لكنه ليس مشرعا . هو يأخذ من النصوص كلها ، و يأخذ من الشواهد ليعطيك خلاصة ما انتهى إليه، و يكون موقعا لا مشرعا . إذن هذا الوضع الأول الذي يمنع أن يكون الفقه بديلا عن الكتاب و السنة.

قد نختلف في استعمال الدليل، في تقوية الدليل، في تضعيفه، يمكن أن نرده،

ولكن لا يمكن أن ينطلق الفقيه ليقول للناس أيها الناس إن هذا الحكم أنا أرتضيه لكم من مشيئتي فقط ، و يسكت المسلمون عنه . لا المسلمون سيقبلون ولا هو يستطيع أن يقول ذلك، لأن الموضوع هو الخطاب الشرعي ، و الخطاب الشرعي ليس سؤال عن حكم البشر وإنما هو سؤال عن حكم الله تعالى كما بينت في معنى الحكم الشرعي . الفكرة التي تسري الآن في كثير من المساجد ، أن نقول للناس أيها الناس كونوا مجتهدين و انتهى الأمر . لا يجب عليك أن تنظر في كتاب فقهي كن مجتهدا ، أتعرف ماذا تقول ؟ إن هذه الدعوة تشطب كل ما وقع الإجماع حوله في كتب الأصول من شروط المفتي ، كل كتب الأصول فيها باب للإفتاء ، و للإجتهد ، و فيها شروط للمفتي . هؤلاء الناس يريدون أن يلغوا هذه الشروط كلها ليقولوا للناس إن الباب مفتوح ، فلتفعلوا في الإجتهد ما شئتم ، و اقتبسوا وخذوا ما شئتم ، و ما قلتموه هو الصحيح . و هذه مجازفة كبيرة و تعريض للحكم الشرعي لعبث خطير جدا . حين يتعامل الجميع بهذه السهولة مع الكتاب و السنة مباشرة ، و أن نحصر الحديث في أبواب معينة ، لنقل في الفقه كتابان يكفيان ، هذا لا يسلم به العلماء . لماذا ؟ لأننا حينما نعود إلى النصوص و هي الأصل ، نجد أن النص الشرعي هو الأساس و هو القرآن و السنة ، فيهما دائما موقع واضح بارز للعلماء . حينما يتحدث القرآن عن مكانة العلماء ، و يميزهم قال تعالى : «يرفع الله الذين آمنوا منكم و الذين أتوا العلم درجات» . و قال تعالى : «إنما يخشى الله من عباده العلماء» . إلى غير ذلك من التوصيفات التي وصف بها العلماء . فإذا كان جميع الناس قادرين على الإتصال بالنص الشرعي ، و الإستفادة منه ، و الإستمداد منه ، فأى دور يبقى للعلماء حينئذ ؟ ما ميزة العلماء ؟ ما هي وظيفتهم في المجتمع ؟ إذا كانت هذه الوظيفة هي وظيفة يمكن للجميع أن يقوم بها . إذن هذا الوضع الآن لا نجد له سببا معقولا لأن الله أراد أن يعطي هذه الميزة للعلماء . لا بد أن نعرف هذا ، بل و لا بد أن نعرف أن الإحالة على العلماء هي تثبيت لدور العلماء ، قال تعالى : «فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون» . إنك حينما تقول للناس كل واحد منكم يمكن أن يعالج النص ، فأين تضع النص ( فاسألوا أهل الذكر) . هذا إلغاء لنص شرعي ، هذه دعوة لإلغاء لنص شرعي ، لن نعود بعد ذلك في حاجة إلى العلماء أبدا ، لأننا نتعامل مباشرة مع النص ، و أهل العلم في أي شيء نسألهم و نحن نعلم كل شيء ، و يمكن أن نستمد من النصوص ما نشاء . بل ألا تنظرون إلى القرآن كيف تحدث بواقعية عن ضرورة وجود فئة هي التي تخصص في هذا ،

و انصراف الناس إلى أعمال أخرى. قال الله تعالى: «و ما كان المؤمنون لينفروا كافة ، فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة منهم ليتفقهوا في الدين ، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون» إذن هناك طائفة حددها الشرع ، لا تقول ابتداء بل تذهب لتتعلم و تتفقه ثم تفتي ، أي حتى هذه الطائفة لا تقوم ابتداء إلا بعد أن تستكمل عدتها ، أنا حينما يقول لي مالك : ما جلست حتى شهد لي سبعون من أهل المدينة أني أهل لذلك ، هل آخذ بهذا وأطمئن لفتوى مالك؟ أم آخذ بفتوى من لم يشهد له أي أحد بأنه أهل لذلك ؟ أنت ستفتح الباب على مصراعيه للجميع و لكن مالكا قال: ما جلست حتى أذن لي أو شهد لي سبعون من أهل المدينة من العلماء ، بأنه أهل لذلك ثم جلس.

و كان من عادة الأمة الإسلامية أنه إذا لم يكن قد تأهل لا يؤذن له بالجلوس، وكان هناك حسبة، تعرفون أن المحتسب عندنا كان من شأنه أنه يمر بالمساجد فإذا وجد رجلا يتحدث في الحلال و الحرام سأله عن مشيخته ، فإن أظهر مشيخته وإلا منعه من ذلك، و لذلك فإن الشيوخ كانوا يشهدون لتلامذتهم بأن فلانا قرأ علي كتاب كذا ، و لو رجعتم إلى فهرس ابن خير لوجدتم العجب العجيب ، حينما يأتي المحتسب و يسأل العالم ، يذكر العالم شهاداته و إجازاته ، فيجيزه ، و إذا لم يكن له إجازة لم يسمح له بالإفتاء . وإنما في أحسن الظروف يسمح أو يأذن له بالقصص ، و يؤدي ذلك واقفا ، لم يكن المحتسب يسمح لغير أهل العلم بالجلوس ، و لذلك كان يقال : فلان له كرسي ، كلمة كرسي هي من صنع المحتسبين ، أي من أعطي كرسيًا بمعنى أذن له في العلم ، و شهد له بأنه يستطيع ، و لو أخذتم هذا في كتاب آدم مترز ، و هو رجل غير مسلم ، تبع الحضارة العربية في القرن الرابع، يجدون العجب العجيب من هذه الأشياء ، و كيف أن المحتسبين كانوا يقيمون القصاص، و الوعاظ الذين لم يتأهلوا و يمنعونهم من الإفتاء . إذن هذا كله هو صنيع الأمة التي تعلم بأن هناك فئة و أن هناك طائفة هي التي تتخصص ، تتأهل ، تتخرج ، تتعلم ، تتفقه في الدين ، ثم تؤدي الرسالة ليظل الدين مأمونا فيما بعد . هذا الأمر متجاوز عند أناس يقولون بأن المذاهب لا تقوم على دليل ، و هذا القول منهم ليس عليه دليل ، بل هو مناقض مناقضة كبيرة للدليل . في حياة رسول الله صلى الله عليه و سلم، كان يمرن الصحابة ، هل تتصورون كما يتصور البعض بأن جميع الصحابة كانوا يفتون ؟ أبدا . الذين

كتبوا في تاريخ التشريع ذكروا أن الذين كانوا يفتون من الصحابة في بعض الأحوال لم يزد بعضهم عن أربعة عشر رجلا . و كانوا يكونون إن شئتم مجموعات ، وورد أن ثلاثة من الصحابة كان يستفتي بعضهم من بعض ، كان علي رضي الله عنه يستفتي من أبي موسى الأشعري و أبي بن كعب رضي الله عنهما هؤلاء كانت الفتوى تدور بينهم ، هذا يسأل هذا ، وهذا يسأل ذلك . وعمر رضي الله عنه كان يستفتي من ابن مسعود و زيد بن ثابت رضي الله عنهما . هذه المجموعات ذكرها جميع العلماء بأن فتاوى هؤلاء تشكل الآن شبه تيار معروف كان موجودا في الفقه، كان موجودا في التفسير ، كان موجودا في كل الجهات . أي حينما تسألون عن مدرسة مكة في التفسير ، فإنها مدرسة معروف أن المؤسس لها هو ابن عباس ، كان تيارا . لو أخذتم مثلا كتاب المرحوم الدكتور الذهبي ، مثلا في تيارات التفسير ، لو جردتم أن التفسير كان محصورا على شكل مجموعات. في اللغة نشأت أيضا تجمعات و كتل، كان الناس على مذهب الكوفة غالبا ، و كان المغاربة في الأول في النحو على مذهب الكوفة ؛ لأنهم رأوا أن الكوفة تشدهم إليها بذكرى علي بن أبي طالب ، ثم تحولوا إلى مذهب آخر هو المذهب البصري ، و بين المذهب البصري و الكوفي فرق كبير في الإستمداد ، أهل الكوفة يأخذون و يبنون على الشاهد الواحد ، و البصريون لهم شأن آخر ، ثم كان هناك المذهب البغدادي الذي نجد منه أبا علي الفارس ابن جني ، ثم كان هنالك المذهب الأندلسي و المغربي ، و لكل مذهب خصوصيته ، و هي خصوصية تعود أساسا إلى الإستنباط ، و إلى اعتماد بعض المصادر ، أو ترك بعض المصادر، و في الدنيا كلها هناك مذاهب ، في القانون هناك مذاهب في تفسير القانون ، في الفنون هناك مذاهب ، في الألسن ( الدراسات اللسانية ) هناك مذاهب : المدرسة الشكلائية الروسية هي غير المدرسة البنيوية ، هي غير المدرسة الوصفية كل العالم فيه هذه المسائل، و لكن لاشيء من ذلك يستغرب. في الرسم هناك مدارس: المدرسة الإنطباعية، و المدرسة الواقعية ؛ لأنه كلما وجد تيار ، تتشكل منه مدرسة ، و إن شئتم مذهبا. فلذلك قلت بأن هذا الأمر كان موجودا بين الصحابة ، و كان الصحابة يشكلون داخلهم تيارات، وطبعا أهل العلم يعرفون هذا أكثر من غيرهم ، و كمثال، في بعض المرات حينما تقرأون في كتب معينة أقوال ابن عباس ، تجدون أنها تنحو منحى معيننا. زيد الفرضي - زيد بن ثابت - معلوم بأن زيد شهد له النبي صلى الله عليه و سلم بأنه أفرضهم - أعلم



الصحابة بعلم الفرائض - و المالكية ينحون و يتابعون زيदा - رضي الله عنه - ، ولكن زيदा كان يخالف صحابة آخرين، و ابن عباس - رضي الله عنه - خالف عثمان بن عفان - رضي الله عنه - في قضايا من الفرائض ، هذا وقع وكان بسبب العلم لا بسبب الجهل ، لا بسبب التحيز. كل ما في الأمر أن الناس لهم طرق في فهم النصوص ، و لهم طرق في التعامل معها . إذن فهذا قد تم على عهد رسول الله صلى الله عليه و سلم . و يمكننا أن نقول بأن أطراف المذاهب كانت موجودة منذ ذلك الحين. المذهب الكوفي الذي أنتج لنا أبا حنيفة ، و فيه ابن مسعود ، و معروف بفتاوى ابن مسعود ، و المذهب المدني . هذه التيارات أو هذه المدارس ، كانت موجودة من عهد الصحابة . هناك داع آخر ، داع يعود إلى التعامل مع النص الشرعي ، هذا الداعي الذي يعود إلى التعامل مع النص الشرعي ، فيه أن النص الشرعي له خصوصية أو لا، هو أساسا يتطلب درجة من العلم كبيرة جدا . و لكن حينما يتعلق الأمر بالخطاب الشرعي يكون ذلك التحقق من بعض المعاني ، من بعض المعارف ، أمرا أكيدا . يروى أن أبا يوسف صاحب أبي حنيفة لقي الكسائي ، و هذان جبلان . أبو يوسف هو تلميذ أبي حنيفة ، حتى كانوا يقولون أبو يوسف - مثل لأبي حنيفة ، و محمد بن الحسن الشيباني ، هذان عليهما قامت المدرسة الحنفية . أبو يوسف قال للكسائي ، و قد وجدته في مجلس الخليفة ، قال له : يا كسائي لو تفقهت لكان أنبل بك ، أي لو تفقهت لكان أحسن لك ، هو عالم من علماء اللغة ، رأس المدرسة الكوفية ، فتصدى له الكسائي و قال للإمام : إنني سائلك عن مسألة ، ليريه قيمة معرفة التحقق في اللغة العربية ، و هو يسأل إماما كبيرا . قال له : لو أن شخصا قال لك ، أو اعترف لآخر ، فقال له : له علي مائة درهم ، إلا عشرة ، إلا درهما . أقر له بالمائة - له علي مائة درهم - إلا عشرة ، إلا درهما ، كم له عليه ؟ فأجاب : القضية سهلة ( بسيطة ) عشرة زائد واحد احدى عشر ، نزيلها ( أي العدد الأخير) من المائة تصير ( أي الناتج يصير ) تسعة و ثمانين . قال له : ( أي الكسائي ) أخطأت ، ليس الأمر كذلك . هذا عالم كبير يُسأل ، كيف يخطأ في قضية مثل هذه ، قال : ( أي الكسائي ) ارجع إلى القرآن ، قال الله تعالى : ( عن ملائكة العذاب الذين أنزلهم على قوم لوط ) «إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين إلا آل لوط إنا لمنجوهم أجمعون إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين» . الشاهد حقيقة قوي جدا ، الملائكة يقولون : أرسلنا إلى قوم مجرمين هم قوم لوط ، هؤلاء

سيبادون فيستنني الله تعالى منهم آل لوط ، إذ هم ليسوا من القوم ، ولكن الله استثنى من آل لوط امرأته . قال ( أي الكسائي ) هل المرأة مستثناة من الآل أم من القوم ؟ قال : ( أي محمد بن الحسن ) هي مستثناة من الآل . قال : ( الكسائي ) ولكن أنت استثنيتها من المائة ، إذن هذا الواحد يستثنى من العشرة ، لا يستثنى من المائة . حينما تصل إلى الخلاف في هذا المستوى ، لتعلم بأن النص ليس بهذه السهولة . هناك أناس كتبوا في أشياء من هذا القبيل ، وقالوا : إن بعض الفقهاء ، على جلالة أقدارهم ، وقع منهم وهم . لو رجعتم إلى ما كتبه ابن العربي المعافري ، في أحكام القران ( كتاب اهتم بتفسير آيات الأحكام ) في قول الله تعالى : ذلك أدنى ألا تعولوا . في قضية النساء . قال تعالى : «فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا» . قال الشافعي : أي ألا يكثر عيالكم . كم وجدت أن هذا التفسير أخذ به بعض الناس الآن و يتمسكون به ، وهم يتحدثون عن منع تعدد الزوجات . كان الشافعي يقول لا تعددوا حتى لا يكثر أبناءكم ، قرأتم ربما هذا في بعض الأدبيات ، ابن العربي في الحقيقة كتب مبحثا جيدا هنا ، و غير ابن العربي ؛ لأن هذا موجود في الكتب المتخصصة ، كلها قالت بأن عال ، لا تعني : كثرة العيال ، كثرة العيال فعلها : أعال ، يعيل . أما عال ذكر ابن العربي أن لها سبعة من المعاني . و منها معنى : انحرف ، و ثقل ، و ابتعد ، شيء من هذا القبيل ، و لكن ليس من معانيها : كثرة العيال ؛ لأن الذي يكثر عياله يقال فيه : أعال ، أي صار ذا عيال ، و لو كان الأمر كذلك لقال الله تعالى ، من الفعل الرباعي ، ذلك أدنى ألا تعيلوا ، و ليس تعولوا . هذه قضية فيها صرف ، و فيها لغة ، و يخطئ فيها الشخص ، لأن أفعل تكون بمعنى اتخاذ ، هذه الهمزة فيها أكثر من عشرة معان . و من معانيها : النزول أنجد فلان ، إذا نزل بجدا . و هذه من عبقریات اللغة العربية ؛ لأنها تعبر بالصيغ عن أشياء كثيرة ، و لكن تقول أيضا في الإتيان : فلان أمشى ، أي اتخذ ماشية ، كثرت ماشيته ، أكلب إذا كان لديه كلاب . إذا هذه الصيغة ، صيغة : أفعل ، فيها هذه المعاني . أعال بمعنى : صار له عيال ، فعل رباعي ، و المفروض لو كان الفعل رباعيا لكان : ذلك أدنى ألا تعيلوا . و ارجعوا إلى هذا في ابن العربي و هو يتحدث . هناك صحابة اختلفوا ، صحابيان كبيران ، عثمان بن عفان ، و ابن عباس رضي الله عنهما ، في قضية من قضايا الإرث . معلوم بأن الهالك إذا توفي ، و كان له أبوان ، فلأمه الثلث ، فإن كان له ولد فلأمه السدس ، فإن كان له إخوة فلأمه السدس ، إذن الإخوة

ينقلون الأم، أو يحجبونها حجب نقص، وليس حجب إسقاط، فينقلونها من الثلث إلى السدس، كلام معروف. ولكن إذا وجد أخوان، كان عثمان يقول، وأنتم تعرفون هذا في كتب الإرث، أن الأم تحجب الأخوين، يقولون: متعدد من الإخوة، ولكن بالأخوين، ترك أخوين ينقل من الثلث إلى السدس. فيقول ابن عباس: إن الأخوين شيء، وإن الإخوة شيء آخر.. القرآن: فان كان له إخوة، وهؤلاء ليسوا إخوة فقال له عثمان، وهو مطمئن، قال: قومك ورثوها، قومك ورثوها. قومك أي: قريش؛ لأن قريشا كانت تعبر عن المثني بالجمع، وتعبر عن الجمع بالمثني، وتتسامح في ذلك، وهو في القرآن كثير. (قال الله تعالى: قرآن يتلى آناء الليل وأطراف النهار) أطراف النهار، وفي الآية الأخرى: (قال الله تعالى: وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل) طرفي النهار. (قال الله تعالى: إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير) قلوبكما، هما امرأتان لا يكون لهما إلا قلبان. وقال تعالى: «وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط».

خصم جمع خصمان. هناك تساهل في اللغة العربية بين الجمع والتثنية. إذن هذا الأمر كثير، أنا أتصور رجلا، نافع الأزرق، يذهب إلى ابن عباس، ويسأله في التفسير، وهو رجل عربي يعرف العربية، أكثر من هؤلاء الذين درسوها في المدارس، هؤلاء أخذوا اللغة من أئداء أمهاتهم، واتصلوا بالوحي، وعرفوا كل الأشياء، ومع ذلك كان الرجل يذهب إلى الآخر يستفتيه، هذا نافع الأزرق ذهب إلى ابن عباس، وسأله عن مائة مسألة، ويطلب من ابن عباس أن يفسر ويستشهد عليها بشاهد من الشعر، وهذه تسمى مسائل ابن الأزرق، مذكورة في بعض الكتب والمرحومة، الدكتور بنت الشاطي، رحمها الله، وضعتها، وجمعتها جمعا جيدا في كتاب لها في «إعجاز القرآن ومسائل ابن الأزرق» كتاب جيد جدا. وأنا أذكر بعض المرات بعض الكتب؛ لنتعود البحث عن الكتب على الأقل، ونطمح إلى أن نقرأها، فهذه المسائل كلها موجودة. فابن عباس كان يسأل فيجيب. (قال الله تعالى: أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون، أو يأخذهم في تقلبهم فما هم

بمعجزين، أو يأخذهم على تخوف فإن ربكم لرؤوف رحيم) أو يأخذهم على تخوف، ما معنى التخوف؟ قال التخوف: التنقص، ألم تسمع قول الشاعر:

تَخَوُّفُ السَّيْرِ مِنْهَا تَامِكًا قَرْدًا      كَمَا تَخَوُّفَ عُوْدِ النَّبِيعَةِ السَّفْنُ

و يسأله عن عزين، و يسأله و يسأله. إذا هذا التفسير لم يكن كما يظن الناس، بأنه شيء ملقى في الشارع، ومن شاء أن يقول في كتاب الله قال، و من شاء أن يقول في حديث رسول الله صلى الله عليه و سلم قال، هذه خطورة كبيرة. أنا حينما أجد الإمام أبا جعفر الطحاوي له « معاني الآثار » وله كتاب « مشكل الآثار ». ما معنى مشكل الآثار؟ هو يقابل بين الأحاديث التي يبدو أنها ذات معان غير متوافقة، ويجتهد أن يردّها إلى المعنى الواحد. هذا شغل المحدث، هذا شغل العالم، ولكن من ليس عالما يأخذ كتابا صغيرا، ويفتي به، و يلزم الناس بما فهمه من تلك الأحكام و يقول: هذه هي السنة، و من لم يعمل بذلك فقد خالف السنة. أظن أن هذا يعطي صورة عن ضرورة وجود الفئة التي تشتغل بالإستنباط و الاجتهاد، إذا كثرت و اجتمعت على تيار، تسمى مذهباً. المذهب هو مجموعة أصول، تتفق عليها مجموعة من الناس. و لكن ليس هناك رغبة في أن يتكون مذهب، المذهب ليس جمعية أو حزبا، يختار الناس أن يكونوه. طريقة في النظر، تجعل ذلك الكلام مذهباً، فتكون المذهب الظاهري بناء على رؤية خاصة للنصوص، صار هناك المذهب الظاهري، لم يذهب بعيدا. الذين قالوا: الليث بن سعد كان كمالك أو أفقه من مالك، لكن أصحابه أضاعوه. لماذا قيل هذا الكلام؟ لأنهم لم يخدموا أصوله، إذا لم تخدم الأصول يموت المذهب، إذا خدمت الأصول، و صاروا عليها في الإستنباط، صارت مذهباً. من غير أن يكون هناك قصد، و لا نية سيئة، و لا أن هذا المذهب هوشيء نقيض للكتاب و للسنة، مطلقا. هذا باختصار شديد صورة حول ماهية و مفهوم المذهب نمر الآن إلى سؤال المحور الثاني يقولون إن الفقه المالكي، و حتى غير المالكي، لا يقوم على الدليل. أولا ما هو الدليل؟ الدليل هو أن هذه القضية ليست مؤسسة على الكتاب و السنة، الدليل عندهم محصور في الكتاب و السنة، و في الفترة الأخيرة، حتى الكتاب لم يعد هو المقصود، الحديث فقط. لذلك تجدون الآن اشتغالا بالأحاديث فقط، و لذلك بعض الناس يقولون، أحد العلماء، ذكر لأحد المناقشين آية، قال: قال رسول الله صلى الله

عليه وسلم ، ثم ذكر الآية ، قالوا : لا يا شيخ هذا ليس حديث ، قال طبعاً أنتم لا تأخذون بالشيء إلا إذا كان حديثاً، إذا كانت آية أنتم لا تأخذون بها . هذا اتجاه ، يجب الآن ، لا نقول نعصف به ، ولكن أن نناقشه ، ونطرح عليه أسئلة ضرورية ، تعرفون ما معنى أن نقول : لا يوجد إلا مصدران : الكتاب و السنة ، تعرفون معنى هذا ؟ مخالفة إجماع الأمة ، هذه واحدة ، ثانياً : مناقضة القرآن و السنة أيضاً ، لأن القرآن و السنة هما اللذان أسسا هذه الأصول ، الأصول ليست أشياء ابتدعتها الناس ، سأذكر لكم شيئاً من ذلك ، حينما تتبعنا ، في بعض المرات ، و أنا كتبت بحثاً في قضية الإرهاب، في ثقافة الإرهاب . و أنتم تعرفون حينما وقعت بعض الأحداث في المغرب ، و في عدد من البلدان الأخرى، انطلقت التحليلات ، و حدث أن التقيت عدداً من المتخصصين في الجماعات الإسلامية و في الإسلاميات عموماً بالمفهوم الحديث لهذه الكلمة ، و سألته عن مرد هذه الأشياء ، لماذا يقع العنف ؟ لماذا يقع هذا ؟ لماذا يقع الإرهاب، تجد أنهم جميعاً ، يأخذون نفس الأسباب النمطية التي يقرؤونها، ثم يمطونها ليسموها فيما بعد : الحالات الفلانية، الحالة المغربية ، الحالة المصرية، و لذلك لا يفهمون شيئاً. و أنا أقول بأن الفكر المنحرف الذي ينتج الآن ، لا يمكن أن يفهم إلا بالرجوع إلى أصوله الشرعية. لما قامت الجماعة التي تسمت بجماعة الإخوان المسلمين، و الجماعة الإسلامية ، في مصر، اجتهدت لأقرأ معظم ما كتبه هؤلاء، قرأته قراءة فاحصة ، و قرأت أصولهم ، و قرأت كيف انتهوا إلى بعض النتائج . كيف كان هؤلاء ينتهون ؟ غريب جداً، هؤلاء يأتون ليقولوا لك إن جميع المساجد في العالم الإسلامي ، هي مساجد ضارر، إلا أربعة من المساجد ، يجوز الصلاة فيها : المسجد الحرام ، المسجد النبوي، مسجد قباء، أو المسجد الأقصى فقط . بإمام منهم ، هذه الفكرة تعرفون إلى ماذا تؤدي ؟ إلى أي شيء ؟ أنه لا يمكن أن يصلي أحد مع المسلمين لا بد أن ينحاز، لا بد أن يكون فكره بموازاة مع الفكر العام ، هذه الفكرة خطيرة. من جملة الأفكار التي وجدتها، قولهم ، و هم ليسوا علماء طبعاً ، منهم مهندسون ، منهم أناس عاديون، أن المصادر الإستنباطية ، هي مصدران : الكتاب و السنة ، و ما زاد على ذلك فإنما هي بدع ابتدعتها الناس ، ويقولون إن القرون بعد القرن الرابع ، كلها هي قرون جاهلية ، لأنها رفعت صنم التقليد للمذاهب ، و هذا طبعاً إلغاء لتاريخ المسلمين كله ، أي من الرابع إلى الآن كل الأمة كانت في جاهلية ، و كل كتب هذه الفترة يجب أن تباد ، و يجب أن تحرق ، هذا شيء خطير له تداعيات على الحياة ، مع الأسف

حتى الذين يهتمون بالشأن السياسي لا يقرؤون هذه الأشياء ولا يقرؤون أدبيات هذه التنظيمات، و بالتالي لا يفهمون، و لا يغوصون في فكر الآخر، هذا فكر يجب مناقشته، و مساجلته، و بيان أن هذه الفكرة حول الأصول، ليست قضية تقرأ هنا و هناك، بل لابد أن تعطى قيمتها، و مكانتها، هذه الفكرة بالضبط، وهي الإنحصر في مصدرين. الذي وقع هو أن هذه المصادر الإستقائية اهتمت بها الأمة، و ما من كتاب من كتب أصول الفقه إلا و يذكر و يعتمد على المصادر الإستنباطية من الكتاب و السنة، و بذلك كان هذا العلم علم أصول الفقه، و لو أزلت من كتاب أصول الفقه مباحث الإجتهد و الأصول الإستنباطية، لفرغ هذا الكتاب و هذا العلم من كل مدلول.

جاءني شخص، طالب علم، و أراد أن يحضر رسالة في الإجازة، قال: أريد أن يكون الموضوع عن اجتهادات فلان الفلاني الفقهية، و أنا أعرف الشخص الذي يتحدث عنه ليس بفقير، قلت طبعا، بما أنك مقتنع بأن تجمع فتاواه، تفضل أنا أشرف عليك، سر بذلك، و كان يجمع كتبا من هذا القبيل. و لكن نحن لنا أسلوب في الإسلام أننا لا نقبل هذه الآراء و الأفكار حتى نعلم مستنداتها الأصولية. لا بد أن يبين لنا هذا الشخص مرتكزاته، لا بد أن تضع فصلا في موقفه مثلا من مفهوم الموافقة، يأخذ به أم لا. يبين لنا مفهوم المخالفة، هل يعتمد أم لا يعتمد، بعض العلماء لا يعتمد على مفهوم المخالفة، بعضهم يأخذ بمفهوم المخالفة، ويستثنى منه القيود العشرة بعضهم لا يأخذ بالقياس، بعضهم يأخذ بالقياس، بعضهم يأخذ بالإجماع. هذه أشياء معلومة لدى الفقهاء، تعرفون هندسة الثقافة الإسلامية هي هذه. هذا الإجماع الذي ينكره بعض الناس هو مدخل الفتنة، لم توجد فرقة خرجت على الأمة، إلا و أنكرت الإجماع، أي العتبة، انظروا هندسة الخروج على الأمة، حينما يريد الإنسان أن يخرج، أول ما يفعل هو ضرب الإجماع؛ ولذلك لا يقول المعتزلة بالإجماع، و لا يقول الشيعة بالإجماع. لاحظوا، هذا شيء خطير جدا، هذا هو العمق في الثقافة الإسلامية، نحن نقرأ في أدبياتهم كذا على أساس أنها مسائل فقهية، هذه موجهاة و محددات للفكر. فقلت للطالب لا بد أن تذكر لي مواقف هذا الشخص المجتهد، جزاه الله خيرا، من النصوص كيف يتعامل معها، هل يأخذ بمفهوم الموافقة؟ هل يأخذ بالقياس الجلي، أم لا يأخذ؟ هذه الأشياء نسأل عنها العلماء، كل العلماء ذكروا ذلك، ثم ذهب هذا الطالب،

وبحث طويلا ، و عاد إلي قال : لم أجد لهذا الشيخ كلمة واحدة في أصول الفقه ، قلت : إذا هذا يتكلم فقط ، هذا يثرثر فقط ، ليس عنده أصول ، هو يتكلم و يقول ما يعجبه ، و لهذا قد يفتي هنا بشيء ثم ينقضه هناك . و ليس هذا هو العلم الذي نحن نتحدث عنه ، نحن إذا قلنا إن المالكية يأخذون بمراعاة الخلاف ، هذا سجال فيه تحدث الناس ، هل يأخذ مالك بمراعاة الخلاف دائما ، أم لا يأخذ به ، ما هو هذا المفهوم ، حينما نقول و نتحدث عن الإستحسان ، أي نوع من أنواع الإستحسان؟ لماذا ينكر الشافعي الإستحسان ؟ أي استحسان نقبل به ؟ هل الإستحسان هو مناقض للنص ؟ و لذلك تجد نقاشا كبيرا حول هذه المواضيع ، هذا الشخص لم يعلم بهذا الأمر ، و لا سمع به ، وإنما أخذ أحاديث من هنا و من هنا ، و كون شيئا يشبه المذهب ، و أصحابه هؤلاء لم يسألوه لأنهم لم يكونوا أيضا علماء ثم كانت الكارثة .

علم أصول الفقه يعتمد عددا من القواعد و الأصول التي لا أستطيع أن أشير إليها جميعا ، و لكن أقول بعضها فقط ، إذا قلنا إن العلماء المسلمين يأخذون بشرح من قبلنا ، من أخذ به ، و من لا يأخذ به ، المالكية يأخذون به ، و يقولون نأخذ بشرح من قبلنا شريطة أن يثبت لنا عن طريق الثقة ، و أن لا يأتي في القرآن و في السنة ما ينقضه ، و يبقى أصلا . من أين أتيتم بهذا ؟ يقولون هناك شواهد من القرآن ، قال تعالى : «أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده» . قال تعالى : «و اتبع ملة إبراهيم حنيفا» . فكيف يؤمر النبي صلى الله عليه و سلم بأن يتبع ملة إبراهيم ، و نحن لا يسوغ لنا أن نتبع ملة إبراهيم ، أو فيما لم يأت الشرع فيه بقول يلغي الأول ، إذن يبقى ذلك الأمر على الأصل . و هذا نقاش حينما يتحدثون عن المصلحة ، هل نقول بها أم هي شريعة جديدة ؟ طبعا ليست شريعة جديدة ؛ لأن الأصل كله هو الرحمة بالعباد ، و الله تعالى حينما أرسل سيدنا محمدا صلى الله عليه و سلم ، أرسله برعاية المصالح ، بالرحمة ، بأن جعله رحمة للعباد . حينما تأخذ في التاريخ التشريعي ، حتى و إن لم يكن موجودا في كتاب معين ، تجد أن عثمان بن عفان رضي الله عنه ، رأى أن الصناعات أصبحت يتهاونون فيما بأيديهم ، كان المسلمون يتعاملون مع الصانع بأن يده يد أمان ، إذا انكسر شيء لا يسأل عنه ، لكن لما ضعف التدين ، قالوا بل يده يد ضمان . انتقل هذه اليد من يد أمان إلى يد ضمان بأي سبب ؟ الجواب هو رعاية

مصلحة الناس ، حينما دعا عمر رضي الله عنه أبا بكر إلى جمع القرآن ، ما هو سنده الذي كان له ؟ قال له أبو بكر : أفعل شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم . ما هو السند ؟ لابد أن يعطيني السند ، قال : إنه خير ، أي مصلحة ، و فعلا كان خيرا عميما أن المصحف جمع ، و لو حاولتم أن تأخذوا من هذا الباب شيئا ، مثلا المرأة ، و هذا يمكننا أن نستفيده حتى الآن ، المرأة في صدر الإسلام كانت تتزوج ، و كان يتزوجها الرجل بالشيوع فقط ، الناس يتزوجون ، و يشيع ذلك في القبيلة أن فلانا تزوج فلانة ، هذا الأصل ، لذلك الإشهاد ليس ركنا في الزواج ، فيما بعد قال الفقهاء لما رأوا أن الرجل أصبح بإمكانه أن يتزوج المرأة وينكر ، ولا يجدون للمرأة من يشهد ، أصبح الفقهاء يتحدثون عن الإشهاد مضافا ، قالوا : الإشهاد ، أي شاهدين ، هو شرط كمال في العقد ، إذا عقد الرجل على المرأة ، شرط كمال ، و لكنه شرط صحة في الدخول ، لا يجوز للرجل أن يدخل بالمرأة حتى يشهد عليها ، إذن هذا الإنتقال لأي أساس ؟ للمصلحة ، حتى لا تفوت المصلحة ، لما جاءت الآن قضية التوثيق ، و أصبحت المرأة ، و هذه المسألة نحب من المسلمين أن يعرفوها ، الآن المرأة لابد أن يكون لها وثيقة زواج ، و البعض يأتي إلى بعض الفقهاء و يقول : نحن نعذر علينا إبرام عقد ، هل يجوز أن نتزوج بالفاخرة ، أنتم تعرفون كثيرا من الناس ، يتزوجون بالفاخرة ، حتى جاءت بعض التعقيدات ، فيقال له جائز ، من حيث المبدأ المعلق جائز ، و لكن من حيث الواقع ، حينما تبحث المرأة بعد ذلك عن وثيقة تشهد بأنها متزوجة من يشهد لها ، هي غدا تحتاج لتسجيل أولادها ، ما الذي يقع ؟ إن هذا الرجل الذي كان من قبل يتساهل في الأمر ، الآن يقول لها : لا ليس بيني أو بينك أي علاقة ، أما إذا مات في تلك المرحلة ، فيقينا بأن الأسرة ستقول لها : هل عندك أي وثيقة أو ليس عندك ؟ إن كان جوابها لا ، فسيقال لها إذهبي إلى حال سبيلك ، ذلك الزوج كان في علاقة غير شرعية ، خصوصا إذا ترك مالا كثيرا ، فإذا ترك الزوج مالا كثيرا ، فالذي يراه هؤلاء سهلا ، أن ينكروا الزواج من أصله ، من الذي يشهد لهذه المرأة ؟ و خصوصا إثبات الزوجية بعد الوفاة من أصعب ما يكون ، إذا فلا بد أن نعتبر حق المرأة ، فلا نتساهل ، خصوصا و أن المرأة هي التي ستؤدي الثمن و الأطفال هم الذين سيؤدون الثمن ؛ لأن الربح الكبير هو الزوج ، في جميع الأحوال هو سيتزوج ، و لكنه لن يخسر شيئا ، ولكن المرأة ستخسر ، و مع الأسف الشديد هذا يقع ، و يقع مما يختلف فيه الإفتاء عن



الواقع. هذا فيما يخص المصالح. هناك أيضا القياس ، تعرفون أن البعض يقول به ، والبعض لا يقول به ، ابن حزم كان لا يقول بالقياس ، و يقول بأن أول معصية وقعت هي قياس فاسد ، لأن إبليس قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ، و النار أفضل من الطين ، إذن النار لا تسجد للطين ، و لكن حينما تقرأ في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما قال : و في بضع أحدكم صدقة ، قيل له : أيأتي أحدنا شهوته و يكون له بها أجر ؟ قال النبي صلى الله عليه وسلم: أرأيتم لو وضعها في حرام . هو قياس ، أي كما إذا وضعها في حرام أثم ، إذا وضعها في حلال يؤجر ، من باب القياس. و حينما سئل عن القبلة للصائم ، قال ، شبه لو تغمض الإنسان ، بما أنه لو تغمض لم يدخل له شيء ، إذا قبل كذلك لم يدخل منه شيء ، و بالتالي فالصيام لا يبطل لهذا الغرض ، و الحديث في هذا أطول من هذا ، إذا فهذه المصادر ، مصادر متعددة و كثيرة ، و هي التي تضم إلى هذه المصادر ، إلى المصدرين الأصليين ، العلماء يتحدثون عن مصدرين أصليين ، هما الكتاب و السنة ، و المصادر الأخرى يسمونها المصادر التبعية ؛ لأنها ليست منفصلة عن الكتاب و السنة بل راجعة إلى الكتاب و السنة ، نحن الآن أمام حالة ، هذه المستجدات ، تعرفون الآن كم تقذف الحياة من مستجدات ، شيء لا نتصوره ، و مع ذلك لا يجوز أن نقول للناس إنكم لا يجوز لكم أن تعملوا أي مصدر من المصادر ، إلا أن يكون ذلك في الكتاب ، أو السنة ، أو دعوا الأمور كما هي ، نحن تأتينا قضية البصمات الوراثية الآن ، هل نثبت بها النسب ، أم فقط نكتفي نفي النسب بها ، هذه حالة . هناك أيضا مسألة زرع الأعضاء ، و هذه قضية من القضايا التي وقعت للناس و هي مطروحة للمجتمع ، هل نجد دائما شاهدها في الحديث مثلا ، لا إذن لا بد أن نأخذ بكل الإجهادات ، و بكل المصادر التي نعلمها ، و لكن أنا أنبه ، لا على طريقة الذين يريدون أن يجهضوا الشريعة بالمصادر ، هناك من يريد أن يبالغ في المصادر ، و يبالغ في المصلحة ، كلما أراد أن يعطل نصا قرانيا ، قال هذا مصلحة . أنا لا أتحدث عن هذا ، المصلحة أخذ بها الفقه المالكي ، و لكنه مع ذلك قيدها بأن لا تكون مصادمة للقرآن . و حينما أفتى يحيى بن يحيى الليثي للأمير بأنه لا يكفي الصدقة و إنما عليه أن يصوم ، قال المالكية ليحيى بأن هذا فيه تجاوز ، هو نظر إلى المصلحة ، قال إن الخليفة له مال ، و يمكن أن يفطر كل يوم ، و يتصدق ، فيتعود . و لكن مع ذلك فإن العلماء ردوا على يحيى بن يحيى و إن كان إماما من أئمة المالكية ، و له

مكانه المعبر . إذن فهذه المصادر بهذه الشساعة نحن محتاجون إليها ، و الذي تصور بأن ما يمكن أن يرجع إليه هو مصدران ، لا يعرف كيف يتوجه الفقه الآن . أنا أدعوكم الآن أيها الإخوة أن تنظروا الآن في الفتاوى الجديدة ، و هي الطارئة ؛ لأنه من المعروف كما يقال : النصوص متناهية ، محدودة ، و الحوادث غير متناهية ، و لذلك لا بد أن نجد وسائل لمحاصرة و ضبط حركة المجتمع ، من خلال الرجوع إلى هذه المصادر المفيدة . المصادر هي حديث طويل ، و عريض ، أنا ذكرت فقط إمام المذهب المالكي ، و علاقته بهذه المصادر ، أولاً أريد أن أقول ، ربما نحن أيضاً نقع نوعاً ما في شيء من التضييق حينما نتحدث عن مذهب واحد ، هو المذهب المالكي ، و كان الأولى أن نفعل ما فعله كبار العلماء ، من أنهم تحدثوا في الأصل عن مذهب آخر ، هو مذهب أهل المدينة ، لأن هذا المذهب و إن نسب إلى مالك ، فإنما نسب باعتبار أنه الصيغة النهائية ، و أنه هو الذي جلى أصوله ، و الذي بينها ، و لكن مذهب أهل المدينة قديم ، و مالك ليس إلا مرحلة ، جهد مالك مرحلة مضيئة ، و جلية لهذا المذهب الذي بدأ قبل الإمام مالك بالتأكيد . إذن ومع ذلك لا مشاحة في الإصطلاح ، و مع ذلك فابن تيمية سمي كتابه في صحة مذهب أهل المدينة ، و هو يقصد به مالكا ، و يقصد به الذين كانوا قبل مالك . هذا المذهب سمته ، أنه يتميز بأنه يأخذ بأكثر الأصول ، أو المصادر الإستنباطية إذا قلنا بما قال به القرافي بأن المصادر المعروفة هي نحو تسعة عشر أصلاً اجتهادياً ، استنباطياً ، فإن المذهب المالكي فيه ستة عشر أصلاً ، أو سبعة عشر أصلاً ، هذه كلها أصول لاستنباط الأحكام ، إذا أعطيتك حكماً من الأحكام الفقهية لا تقل لي بأن مالك ليس عنده حكم فيه ، أنت لا تعرف الدليل . أحد الأشخاص كان يتحدث ، لاحظوا كيف يعيب هؤلاء ، من كل الإتجاهات ، و كنا في حوارات قديمة في مسألة المدونة ويقول : انظروا إلى المذهب المالكي ، مالك يقول : بأن الرجل لا يتزوج المرأة إلا بولي ، و لكنه يقول بعد ذلك بأن الرجل إذا تزوج امرأة بغير ولي ، ثم بعد ذلك وقعت الوفاة ، فإنها ترثه و يرثها ، و يجمع الطلبة في الجامعة ، و يقول انظروا إلى هذا التناقض في المذهب المالكي ، و الناس يضحكون ، فاستفزني الأمر فقلت له في المحاضرة مم تضحكون ، أمن مالك أو من أنفسكم ، تضحكون من جهلكم ، مالك لم يخطئ ، و لم يكن الإمام مالك ينتظر بأن تأتي أنت لتكتشف هذا الخطأ ، أبداً . مالك ماذا كان يقول ؟ لما يكون الحكم حكماً فهو يقر رأيه ، و لكن لما يعمل بذلك الأمر على الخلاف ، و تقع الآثار

و حتى لا تضيع المرأة في إرثها فلا أقول بقولي الأول ، وإنما أنعطف عليه ، وأخذ بلازم دليله . أنا لازلت على قولي الأول بأن ذلك الزواج ليس صحيحا ، و لكنني أخذ بلازم المذهب الذي يقول بأن ذلك العقد صحيح ، من أجل المرأة ، حينما نختلف و نجد أنفسنا في وضع سيء ، مثلا ، لو تم ، عندك الآن ، بشروطه الصحيحة مثلا ، أن قال لك شخص : إن فلانة الفلانية أرضعت هذا الولد ، من غير أبنائها مرة واحدة ، فقط . ثم انصرفت أو انصرف ، ثم اكتشفنا بعد ذلك أنه تزوج بنت هذه المرأة ، أي أخته من الرضاع ، و لكن أخته من الرضاع بحسب مذهبنا بالتأكيد ، لأنه لو سألتني أحد قبل الزواج لقلت له : لا يجوز . و لكن وجدت أن الرجل تزوج ، وله خمسة أبناء ، و أسرة ، و أبنائه يدرسون ، و كذا ، هل أخذ بهذا ، أم أخذ بلازم المذهب الذي يقول : بأن الذي يرضع إنما هو خمس رضعات مشبعات ، لو رجعت إلى ذلك لخللت ، هذا أصل أستعمله الآن ، لذلك قلت : إن هذه الأصول في المذهب المالكي ، ستة عشر أصلا ، أو سبعة عشر أصلا ، لأن الخلاف يقع في قاعدة أو أصل : مراعاة الخلاف و هذا يعطينا سعة .

من الأصول الكبيرة التي اعتمدها مالك ، هو أصل المصلحة ، مراعاة المصالح المرسله ، و المصالح المرسله هي مصالح لم يشهد لها الشرع لا بالإلغاء و لا بالقبول ، هي أشياء جدت ، ننظر إليها كمصلحة ، و لكن بالنظر إلى الكليات الخمس ، هل هذه المصالح هي مصالح حقيقية ، و لا تصادم موقف الإسلام في حماية هذه الكليات الخمس ، حينئذ نأخذ بها ، و لذلك كان الناس يقولون دائما ، لولا مالك لضاقت المسالك ، أكثر الذين يتحدثون الآن يتحدثون عن فقه تجريدي ، لا يتحدثون عن فقه مسؤول ، واقعي ، حينما نتحدث عن المصلحة بشرطها فمن أجل أن يتسع المقام ، أو لأن لها مشروعية ، أو من أجل أن نعرف في نهاية المطاف ، أن القول بهذه المصلحة حينما يقول بها العلماء ، لها سندها الشرعي ، و بعضهم يقول لك لا ، مذهب مالك ليس فيه أصول نهائيا لأنه لم يحدد الأصول ، إذا كان هناك أصلان فهذه مسألة فيها نظر ، و لكن الأصول الأخرى لا بد أن نستحضرها. دعونا الآن نعود إلى الأصول ، إلى الكتاب والسنة ، قد نجد أحكاما ، يقول بعض الناس أن فيها مخالفة للسنة ، و هذا الكلام تجدونه في بعض المساجد الآن ، هناك أناس يتساءلون حول هذه الأشياء ، و هؤلاء لا بد أن نبين لهم الأمر ، في المذهب المالكي ، هناك حالات نجد فيها تقابلا ، بين الظني

و القطعي ، الظني الذي هو حديث آحادي ظني ، و بين ماله حكم القطع ، و هو العمل المسترسل في أهل المدينة ، من زمن رسول الله صلى الله عليه و سلم إلى وقتهم ، أنا لن أجيب مباشرة عن هذا السؤال ، لو قال لك أحد الأشخاص : إن أهل المدينة اتفقوا على تغيير منبر النبي صلى الله عليه و سلم ، لم يكن منبره هناك ، إنما غيره ، هل تصدق هذا الكلام . لو قلت لك أو قال لك شخص : إن أهل المدينة قد وقع لهم الوهم في بيان قبر رسول الله صلى الله عليه و سلم ، هل تصدق هذا ، أيعقل أن جميع أهل المدينة ، بإجماعهم يتفقون على هذا الأمر لو قلت لك بأن أهل المدينة لا يعرفون كيف كان يصلي رسول الله صلى الله عليه و سلم و أن الصلاة عندهم أجمعوا على تغييرها ، هذا سؤال وجيه و هو سؤال مطروح على العقل، هناك أحاديث تروى ، هذه الأحاديث ذهب بها الناس إلى جهات أخرى ، و لكن أنا لا أقول لك حديث الآحاد ، أنا أقول لك الواقع العملي ، الإجماع النقلي، أهل المدينة لا يتحدثون عن إجماع اجتهادي ، يتحدثون عن أشياء هم نقلوها ، إما أنهم أمناء و إما أنهم ليسوا أمناء ، إما أنهم أمناء فهم يحافظون على شيء تلقوه من رسول الله صل الله عليه و سلم ، و إما أنهم غير أمناء ، فهذه تهمة توجهها لجماهير الأمة بما فيهم التابعون و الصحابة ، و من بعد ذلك . هذه أسئلة و جبهة يجب أن تناقش ، و كمثال لهذا ، أنا أذكر مثالين: جاء الناس إلى مالك بأحاديث ، يروونها ، جاء أبو يوسف إلى المدينة ، إلى مالك و ناظره ، و كان عند أبي حنيفة شيء من الحديث ، أن الحبس ليس من فعل المسلمين الأحياس ، الوقف ، و كانوا يروون : لا حبس أو لا حبس عن فرائض الله ، و كانوا يقولون إن ابن عباس كان يقول : إنه بعد أن نزلت سورة النساء ، و بعد أن حددت الموارث ، قال تعالى : «يوصيكم الله في أولادكم»، نهى رسول الله صلى الله عليه و سلم عن التحبيس ، بعد آيات الإرث ، و هذا كان موجودا ، و تجدون هذا الكلام حتى عند صاحب الرسالة الطحاوية ، تجدونه عند مجموعة منهم ، هذا الشخص جاء بهذا العلم إلى مالك ، يقول مالك لأبي يوسف ، يا هذا : أنت تحدثني بشيء ، هذه أوقاف رسول الله صلى الله عليه و سلم و الصحابة قائمة ، أنت تتحدث بشيء نظري ، أنا لا أقول شيئا نظريا ، أقول لك هاهو الحكم ، هذه الأوقاف موجودة ، بنايات حبسها الصحابة ، فعن أي شيء تتحدث ، هناك قول سأتيك بحديث ، لو وجد إنسان لقال : من لم يعمل بهذا الحديث فقد أخطأ السنة ، مالك يقول ، و هذه أوقاف رسول الله صلى الله عليه

وسلم و أوقاف الصحابة ، هاهي الآن . جاء أبو يوسف كذلك بشيء في قياس الصاع ، كم فيه من رطل ؟ و كان الصاع عندهم في العراق فيه : ثمانية أرطال ، فقال مالك الصاع عندنا فيه : خمسة أرطال و ثلث الرطل ، أهل العراق عندهم كم ؟ ثمانية أرطال ، نحن عندنا خمسة ، من سيفك هذا الخلاف ، قال مالك لتلامذته ، قم يا فلان ، قم أنت ، قم أنت ، قم أنت ، إتونا بصواعكم التي كان أبائكم يستعملونها ، فجأؤوا بصواعهم ، فإذا هي كما قال مالك ، أي خمسة أرطال و ثلث . إذن هذه أشياء توزن بالواقع ، و هذه الحججة و المستند الذي يجده المالكية حينما يقع الخلاف بين الواقع و بين الحديث بل إننا في علوم الحديث ، في تطبيق الحديث ، في جميع المدارس ، عندنا سؤال : إذا اختلف الفعل مع القول بأيهما نأخذ؟ إذا كان الراوي يروي حديثا و يعمل بخلافه ، تعرفون بأن هذا من المناقشة ، أن أبا هريرة كان يروي بأنه لا بد في الإناء الذي شرب وولغ فيه الكلب ، يغسل سبعا إحداهن بالتراب ، لكن أبا هريرة كان يغسل الإناء ثلاثا فقط ، فهل الحججة في مرويه أو في فعله ، هذا خلاف ، و بعضهم يقولون : ما تركه أبو هريرة إلا لأنه استيقن بأن ذلك لم يكن آخر ما قاله رسول الله صلى الله عليه و سلم في الموضوع أي ثبت له دليل آخر ، و لكن في جميع الأحوال ، ليس هناك تجاوز للسنة ، فهم للسنة نعم ، الأحاديث الأحادية ، هل تتصورون كما يقول بعض الناس الآن ، كان الناس إذا جاءهم الحديث لا يسألون عن قطعته وعن ، و عن ، هذا أمر غريب جدا ، الإمام مالك وضع ، في كتابه في الموطأ آلاف الأحاديث ، و مازال ينقحه ، و ينقحه حتى ماترك إلا نحو خمسمائة و ثمانين ، أين ذهبت الأحاديث الأخرى ؟ إذن هناك تنقيح . هل أبو حنيفة حينما تأتبه الأحاديث كلها ، لأنها أحاديث ظنية ، هل يأخذ بها هكذا دفعة واحدة أم يسأل ؟ تعرفون بأن أبا حنيفة له شروط في القبول بخبر الآحاد ، مثلا ، و هي شروط تطرح على العقل أيضا ، يقول : كيف يكون الحديث آحاديا في مسألة تعم بها البلوى ، مثلا حديث الوضوء من مس الذكر ، هذا من المفروض أنه يقع للرجال كثيرا ، مفروض أن الناس سألوا النبي صلى الله عليه و سلم ، عنه كثيرا ، مفروض أن النبي صلى الله عليه و سلم أجاب عنه كثيرا ، لكننا لا نجد فيه إلا حديثا واحدا روته امرأة ، أي لا حاجة لها بهذا الحديث أصلا ، هذه أسئلة يطرحها الناس ، ولذلك أبو حنيفة له أقوال كثيرة ، سماها شروط عدم الإنقطاع ، هي ثمانية حالات ، و هذا الذي جعل مذهب أبي حنيفة هكذا ، و لما ذهب في هذا المسار ،

ليس لأنه يخالف السنة ؛ بل لأن له شروطا في فهم السنة. إذن نحن عندنا إشكال اختلاف الظني بالقطعي ، اختلاف أو مواجهة العمل بالقول ، و هذا السؤال يجب طرحه ، و هذا السؤال موجود أيضا عند علماء أصول الفقه ، في أيهما أكثر دلالة في فعل رسول الله صلى الله عليه و سلم ، هل القول أم الفعل؟ بعض الأصوليين يقولون بل الفعل أدل ، أولا لأن النبي صلى الله عليه و سلم أحال على الفعل ، قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : صلوا كما رأيتموني أصلي . كان الفعل هو الأصل ، و قال : خذوا عني مناسككم . أي الفعل ، كان حينما يريد أن يفطر في بعض الغزوات يأخذ الماء و يشرب و الناس يفهمون ، في صلح الحديبية لما لم يرد الناس أن يستجيبوا ، و حلق بعضهم و لم يحلق البعض ، دخلت كذلك أم سلمة فقام ، فتحلل ، فلما رآه الصحابة تحلل ، تحلل الجميع . لأن الفعل أدل من القول ، إذا عندنا قول و فعل ، أنت تقول بأن هذا القول كان موجودا ، و هو وارد ، و أنا أقول لك بالفعل و أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم ، و التابعين من بعد على شيء آخر ، و لا يقل لي أحد لم تستعمل السنة ، أنت تركت السنة ، لا ، الإمام مالك لم يترك السنة في الصواعي و في هذه الأشياء التي أفتى فيها بغير ما يتصوره الآخرون بأنه سنة . أذكر هذا السبب ، و أذكر سببا آخر ، و أنا أقول أننا الآن سنتكلم عن أشياء هي من عمق الفقه ، و لذلك من ليس عنده علم بأصول الفقه لن يفهم هذا الكلام ، و لا يستطيع ذلك. أنا سأطرح سؤالا : العام حينما يأتي ، اللفظ العام يدل على أفراد متعددين ، العام لفظ يستغرق الصالح له بلا حصر ، كما يقول الأصوليون ، هل دلالة العام على كل أفرادها هي دلالة قطعية ، أم هي دلالة ظنية ، هذا سؤال ، و لا بد من الإجابة عنه . أبو حنيفة يقول إن اللفظ العام في القرآن قطعي في جميع أفرادها ، و في جميع من ينضوي تحت ذلك العموم ، و بالتالي أنت لو أردت أن تخصص القرآن ، اللفظ العام في القرآن ، ما استطعت تخصصه إلا بنص قطعي ، الذي هو القرآن أو الحديث المتواتر ، أما حديث الأحاد عند أبي حنيفة ، فلا يقوى ، لا يسمو إلى أن يخصص العموم في القرآن ، ما الذي ينتج عن هذا ، يقول الله تعالى : «أنفقوا من طيبات ما كسبتم و مما أخرجنا لكم من الأرض... الآية». أمانا حديث ، قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : ليس في الخضروات زكاة . الآية فيها عموم : أنفقوا من طيبات ما كسبتم ، و مما أخرجنا لكم ، أي العموم ، سواء كان هذا الذي أخرج لكم شجرا ، أو كان أي شيء ولكن

الحديث فيه استثناء ، ليس في الخضروات زكاة ، هذا حديث ظني لا أخصص به العموم ، و لذلك كان أبو حنيفة يوجب الزكاة في هذه الأشياء . حينما أخذ أناس آخرون بالحديث الأحادي ، و خصصوا به ، أعملوا كل هذه الأحاديث لكن مالكا ماذا فعل ؟ قال مالك : إنني أخذ بالحديث الظني ، شريطة أن يتقوى لدي ، أنا أخصص به ، و لكن لا بد أن يتقوى لدي ، لا أخذ به مفردا ، أدعمه ، هذه الأشياء التي يدعم بها مالك الحديث ، هي أشياء كثيرة ، منها عمل أهل المدينة ، و إلا فما يدعم به مالك الحديث الأحادي ، أكثر من اثني عشر حالة ، كلها تدعم أن يقع الإجماع على الحديث فالإجماع الذي تلا الحديث هو إجماع مدعم للحديث ، لاحظوا ثلاث مناهج الآن ، مذهب أبي حنيفة الذي لا يخصص القرآن بالأحاديث الأحادية ، و إن نشأ عنده مذهب في هذا السياق . مذهب من يخصصه بالأحاديث الأحادية و لا يبالي ، ثم مذهب مالك بين هذا وذاك ، وهو يخصص و لكن إذا تقوى . ما معنى تقوى ، آية واحدة ، قال الله تعالى : «قل لا أجد في ما أوحى إلي محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقا أهل لغير الله به». إذن هذه هي الأشياء المحرمة ، لا محرر إلا هذه الأشياء ، لا أجد في ما أوحى إلي محرما على طاعم ، الميتة ، الدم المسفوح ، لحم الخنزير ، أو ما أهل به لغير الله ، أي ما ذبح لغير الله . هل هذا العموم تستطيع الآن أن تخصصه بشيء آخر ؟ عند أبي حنيفة لا يخصصه بشيء آخر ، إلا بآية أخرى ، أو بحديث متواتر . عند مالك الأمر معقد ، ورد حديثان ، حديث فيه النهي عن كل ذي مخلب من الطير ، نهى رسول الله صلى الله عليه و سلم عن كل ذي مخلب من الطير ، و حديث آخر ، و هو نفس الحديث ، فيه أن النبي صلى الله عليه و سلم نهى عن كل ذي ناب من السباع . إذن هل أخذ مالك الحديثين معا ، و أضافهما إلى الآية ، و خصص عموم الآية ؟ لا . فأما ما كان من قضية نهيه صلى الله عليه و سلم عن كل ذي مخلب من الطير ، قال : وجدت أهل العلم عندنا لا يرون أن أكل شيء من الطير حرام ، اختلف قول مالك في الخطاف و الطيور التي تسير بالليل ، يسمونه الوطواط ، بالليل و بالنهار ؛ لأن لها طبيعتها . و المالكية فيما بعد قالوا : تحرم الطيور الكاسرة ، المفترسة ، كالعقاب و الشاهين و الغراب ، و أما ما سوى ذلك فإن مالك لم يكن يرى حرمة ، و الحديث لأن أهل المدينة لم يكونوا على ذلك ، و لكن حينما تعلق الأمر بالحديث الآخر الذي فيه أن النبي صلى الله عليه و سلم نهى

عن كل ذي ناب من السباع ، أعمله و قال هذا كان يعمل به أهل العلم عندنا . إذن أي شيء نقول لمالك ، تركت السنة في ماذا ، في الحديث الأول أم في الحديث الثاني ؟ هذا منهج ، هذه هندسة و علم ، و لذلك الإنسان في مثل هذه الأشياء يجدر به أن يتريث . هناك أشياء مذكورة ، ألف فيها البعض ، في الأحاديث مثلا قال رسول الله صلى الله عليه و سلم البائعان بالخيار مالم يتفرقا ، هذا حديث معروف ، و هو رواه مالك ، و لكنه كان يقول بأن العمل ، ليس على هذا عندنا ، ليس لهذا حد محدود و لا عمل معروف ، قال : لا أعرف أن هذا الأمر عمل به عندنا . الشافعي كان له موقف آخر ، و كان يرى أن الرجل إذا التقى مع الرجل أو البائعين إذا التقيا ، و تباعا فإنهما يظلان في الخيار حتى يفترقا ، إذن إذا ظلّا في مكان هذا مع هذا و ظلّا جالسين ، فلا أحد منهما يلزمه البيع ، فإن افترقا بالأجساد فقام أحدهما ، يلزم البيع بالإفتراق ، و هو ما يسمى مجلس العقد ، إذن قضية مجلس العقد مسألة خلافية بين الفقهاء ، و ليست خاصة بمالك فقط ، بل هذه القضية يقول بها أناس آخرون من أهل الكوفة ، إذن مسألة لا تتعلق بالنص و لكن تتعلق بفهم النص ، كان العلماء المالكية يتحدثون ، و الحنفية يتحدثون . الحنفية تحدثوا بنفس دليلهم . قال الحنفية : إن هذا الحديث قضية تقع للناس في جميع الأوقات ، إذن هي مما تعم به البلوى ، إذن المفروض في قضية البيع أن تكون هناك أحاديث أخرى . و لكن نحن لا نجد فيها إلا هذا ، قالوا كذلك : البائعان بالخيار ، أو المتبايعان بالخيار مالم يفترقا ، أن هذا الحديث ، فيه الإشارة إلى المتبايعين ، لكن الناس حينما يقع الإيجاب و القبول ، يقول هذا بعت ، و يقول الآخر قبلت ، لم يعودا متبايعين ، انتهى الأمر . المتبايعان هما اللذان يارسان البيع ، هذا يعرض ، و الآخر يشتري ، أما إذا قال الآخر قبلت لم يعودا متبايعان . إذن الحديث يتحدث بما قبل الإنعقاد . ابن العربي له كلام في هذا الأمر ، يتحدث عن هذا الحديث ، هو لم يتحدث عنه في المسالك ، تحدث عنه في العارضة قال : ظن الناس أن هذا الحديث رده مالك بسبب عمل أهل المدينة ، وأنا أظن أن هذا هو الصحيح ، لأن مالك قال : ليس لهذا عندنا حد محدود ، و لكن قال ابن العربي : إن السبب في رده هو أن الأحكام الشرعية دائما منضبطة ، فلو أنه أجل بأجل معين ، لكان هذا صحيحا ، لكن الأصل في أن البيع و الشراء ، تتعلق بهما أشياء كثيرة فيؤقتان ، لأن دائما هذه الأشياء مؤقتة ومحددة شرعا ، وهذا لم يحددها ، البائعان بالخيار ما لم يفترقا ، قد يجتمعان في سفينة ، و يظلان



في تلك السفينة لمدة شهر، بما أنه ليس محددًا، و لذلك هو أخذ ليس لهذا عندنا حد محدود، فقال ابن العربي: إنه لم يرد بسبب عدم عمل أهل المدينة وإنما بسبب عدم الضبط الذي يجب أن يتوفر في العقود، هذا كلام ابن العربي، والمازري له في مناقشة هذا الحديث كلام آخر طويل. الذي أريد أن أقول، قد أقبل أنا ما قال به فلان، أو لا أقبل، لكنني لا يجوز لي كطالب علم و كباحث عن الحقيقة أن أقول: إن مالكا بنى قوله على غير مذهب، مستحيل. إذا رأيت إنسانا يقول: بأن الشافعي، أو أحمد بن حنبل، أو أبا حنيفة بنى رأيه على غير دليل اعرف بأنه جاهل، لم يكلف نفسه أن يبحث في هذه الأشياء. الآن نمر إلى نموذج آخر، عندما يأتي شخص من مكان ما، ويقول لي: صفة صلاة النبي صلى الله عليه وسلم كذا، الكتب في صفة صلاة النبي صلى الله عليه وسلم معروفة وموجودة في كذا وكذا، و صحيح من أين أخذها من مجموعة أحاديث وصلته. أما أنا فأقول: هكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي، من أولى بالحديث عن صفة صلاة النبي صلى الله عليه وسلم، أهل المدينة أم غيرهم؟ يمكن أن تقول هذا ما وصلنا عن صلاة النبي صلى الله عليه وسلم، قل ما شئت، لكن الصفة، أهل المدينة هم أولى بها، لا يمكن أن تجادلهم، أنت وصلتك أخبار هل كنت تراه؟ للمحدثين مع تلك الأخبار كلام، ولكن أن تقول: صفة صلاة النبي ليس لك أن تقول هذه صفة صلاة النبي هو اختصاص أهل المدينة، لأنهم رأوه، و ليس من رأى كمن سمع، أنت سمعت أنا أقول رأيت، لا يمكن أن أقول إن جماهير الناس كلها أخطأت بسبب أنك تروي حديثا، أنا لا أقول لك صحيح أو غير صحيح، و لكن أقول لك بأن الأمر يحتاج إلى نوع من التريث والتثبت، و هذا الذي أريد، هناك نماذج كثيرة من هذا، أشياء كثيرة مما يمكن الحديث عنها، و لكن أقول لشبابنا خصوصا، و لطلاب العلم، اقرؤوا العلم، ولا تكونوا مغرمين بالشذوذ، كثير من الناس يفعلون أشياء لو سئلوا عنها لما استطاعوا أن يجيبوا، أنا أذكر لك السنة التي استقرت و ثبتت، لاحظوا اقرؤوا في صحيح مسلم في باب صفة الأذان، ستجدون العجب، أمر النبي صلى الله عليه وسلم بلال بأن يثنى الأذان: الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمدا رسول الله، أشهد أن محمدا رسول الله، و أن يفرد الإقامة، هكذا ذكرها مسلم، و فيه أيضا في تعليم النبي صلى الله عليه وسلم لأبي محذورة الأذان أنه قال: الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا



وجعل للنساء إماما هو تميم الداري، وجعل للرجال إماما، وصلوا عشرين ركعة،  
والصحابية حاضرون، لماذا؟ أكان عمر رضي الله عنه، مضيعا للسنة؟ لا، هو  
أعرف بالسنة؟ إذن أتريد أن تراحم عمر بن الخطاب أو الصحابة، لماذا؟ هل لأن  
السنة التي كان يؤديها الناس مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، لم يعد الناس  
يؤدونها مع الصحابة لضعف تدينهم، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم  
يؤدي هذه الركعات، فلا تسأل عن حسنهن، وطولهن. وكان الناس يصلون،  
ويطيلون الصلاة حتى يستعينون بالقسي، ويقفون طويلا، وكانوا إذا انتهت  
التراويح يذهبون مع فروع، هكذا، مع فروع الفجر بيتدرون غلمانهم، قبل أن  
يطلع الفجر أعطونا السحور، بمعنى أن الليلة كلها كانت تستغرق ذلك، لكن أنت  
الآن إذا أردت أن تصلي السنة فمرحبا ولكن طبقها جيدا، كما كانت، صل الثمانية  
جازاك الله بخير هذه هي السنة، ولكن لا تخرج من المسجد إلا مع فروع الفجر،  
هكذا يقول الحديث، لماذا تفعل النصف وتترك النصف. لما رأى عمر أن الناس  
لم يعودوا يفعلون ذلك، زاد في عدد الركعات ونقص من الطول، وصلى الناس  
كذلك. وكان أهل مكة والشباب خصوصا، يصلون في المسجد الحرام، فيجلس  
الناس للإستراحة، ولذلك تسمى تراويح فيقوم الشباب، فيطوفون بالبيت سبعة  
أشواط، ثم يأتون، ثم يستمرون، فصار أهل مكة يجمعون بين التراويح والطواف  
للشباب منهم خاصة، فنظر في ذلك أهل المدينة، وقالوا إن أهل مكة يفوقونا  
بهذا فصاروا يضيفون بمقدار ما فاتهم من تراويح أهل مكة، فصارت التراويح  
عندهم ستا وثلاثين ركعة، وحينما كان وقت مالك، كانت التراويح ستا وثلاثين  
ركعة، وحينما أراد الأمير أن يغير ذلك قال له مالك لا تفعل ذلك فإن ذلك هو  
ما كان عليه الناس، وقال الشافعي: لا يجوز أن يطاول الناس أهل مكة إلا أهل  
المدينة. على كل حال، قال العلماء فيما بعد الأمر سهل، ميسر، ولكن لا يمكن أن  
تثير زوبعة وتقع الأرض، أنت تزيد، لأنك ستجد نفسك تتهم الصحابة،  
تتهم أجيال العلماء تواجه الفقه برجاله، وهذا الأمر، لا نريد لإنسان أن يتورط  
فيه، وفعلا عندنا سنن كثيرة، عندنا سنن كثيرة ضائعة، ولكن لا أحد يسأل عنها،  
لأن الناس يضيفون السنن كما يشاؤون، بالطريقة التي تريدهم، والتي تسبب لهم  
التميز، والخصوصية، والخصومة، وما إلى ذلك. يقول الواحد كان النبي صلى  
الله عليه وسلم يحب أكل لحم الكتف فقط، كأن النبي صلى الله عليه وسلم لا  
يحب أن يأكل إلا لحم الكتف، ألم يكن النبي صلى الله عليه وسلم إماما لهذه

الامة ، هو الذي أحدث في هذه الأمة هذه النهضة ، هو الذي نشر العلم و المعرفة ، كان محمد صلى الله عليه و سلم رجلا ، الناس كانوا يتحدثون عن بطولات محمد صلى الله عليه و سلم ، و عن شجاعته، و كنا إذا حمي الوطيس لذنا برسول الله صلى الله عليه و سلم ، و كان في أهله و أصحابه... ، أشياء كثيرة ، هذه كلها يجب أن تجمع ، و لكن هذه الأشياء التي للعلماء فيها مقال و فيها نقاشات ، حتى لو اختار الإنسان ما شاء عن علم طبعاً، و لكن ليس لأنه رأى في التلفزيون ذلك ، لأننا ذهبنا بعيداً ، و أنا رأيت بعض الناس يؤثر بهم هذا المنهج إلى حد خطير ، بعضهم يقول لا أقرأ بورش عن نافع لأن فيه تسهيل ، و التسهيل إضاعة جزء من القرآن ، فأنا لا بد أن أقرأ بحفص ، من قال هذا فقد خرج من الملة ، قراءة متواترة يردها شخص برأي مريض ، لماذا ؟ لأنه رأى أن هنالك شخصاً أو هنالك أشخاص يقرؤون بهذا، هذه قراءات سبع لا يجوز للإنسان أن يقرأ بواحدة ، و يطعن في الأخريات ، و إلا فإنه طعن في القرآن. إن العلم يساعدنا على الرؤية الصحيحة ، يساعدنا على تكوين الفكرة ، أي نحن من المستقبل ، أي في المستقبل لن نكون في حاجة إلى أن نخاصم الغير، و لا أن نتهم الغير ، و لكن سنكون في حاجة إلى أن نتناقش مع الغير ، و أن نتعلم ، أنا ذكرت لكم فقط هذه الأشياء ، و كان بودي أن أذكر أكثر من الأمثلة. إن لدينا ، نحن المالكية ، العشرات من الكتب الحديثية التي خدم بها المذهب ، كتاب الإستذكار لابن عبد البر ، و كتاب التمهيد ، و لذلك يقول ابن حزم : كتاب الإستذكار لم يؤلف في الإسلام مثله في فقه الحديث ، ابن حزم على مخالفته له يشهد له بأنه لم يؤلف مثله ، التمهيد ليس في مستواه في هذا الباب ، و لكن له اتجاه آخر . أبو بكر ابن العربي هو فقيه مالكي ، و لكنه متحلل أيضاً ، وله استقلال، قد وضع كتاباً هو كتاب المسالك ، وهو مطبوع الآن في سبعة أو ثمانية مجلدات ، الآن موجود ، و له كتاب القبس ، و كلاهما شرح به الموطأ ، و القاضي عياض في إكمال المعلم ، و المازري ، و السنوسي، و القرطبي ، الجد و ليس المفسر، له كتاب المفهم شرح به مسلم ، التاودي ابن سودة له كتاب في فقه مالك في شرح البخاري، هؤلاء الناس لم يكونوا يذهبون في طريق محاذ للسنة، بل كانوا يخدمونها و أنا أقول : إن جميع الذين اتصلوا بالمالكية ، و هم كثير، و الذين كتبوا في الحديث ، و المدرسة الحديثية ، و الحمد لله ، و ما كتب فيها كثير، كلهم كانوا يعرفون ما يقولون ، و يحرصون على السنة و يرعونها ، و يريدون أن يبينوا كيف انتهى الناس إلى هذه الأقوال ، هناك الآن مشروع كبير في بعض

البلاد الإسلامية، هو مشروع كتابة الفقه المالكي بالدليل ، وهذا المشروع نرجو إن شاء الله ، أن يشارك فيه الجميع، و الآن أبجز مجموعة من الكتابات ، و قد أحيل علي كتاب أبجز في باب الزكاة ، و فيه عمل و جهد كبير ، يحاول فيه أن يرد على السؤال ، الذي يطرحه الناس، الذي يحاول الآن أن يرد هم العلماء ، الذين يعرفون كيف انتهى الناس إلى هذه الأقوال ، و يستطيعون بيان مأخذ الأقوال ، قد نختلف، لا أقول بأن كل شيء يمكن أن يتفق عليه الجميع ، و لكن الذي لا نختلف فيه هو أنه لا يمكن أن يتعمد علماء المسلمين، لا في المذهب المالكي و لا في غيره ، أن يقيموا فقها محاذيا للسنة و مخالفا للسنة، و أن يأتي أمثالنا ليعقبوا عليهم ، وليستعلوا هذا الإستعلاء ليقولوا للناس أنتم أخطأتم فإن الفقه ، فقهم غير سني، هذا كلام لا يقوله إلا من لا علاقة له بالفقه، و لا علاقة له بالمعرفة ، أو أنه يريد أن يذهب بهذه الأمة إلى خطر داهم، لأن الأصل أن هذه المذاهب كلها في حدودها جهد ، و المدرسة ليست عمل شخص واحد، المدرسة هي عمل أجيال من العلماء، كيفما كانت المدرسة الفقهية ، و بالتالي أن يكون الشخص الآن الذي ليست له الصلة الحقيقية بالعلم، و لم يجلس إلى العلماء ، و لم يأخذ بالأصول يستبعد أن يكون على صواب ، في نفس اللحظة التي نتصور أن أفواج العلماء كانت على خطأ ، أقول هذا القول، و أستغفر الله لي و لكم ، و السلام عليكم و رحمة الله تعالى و بركاته .



# تنمية التجديد و الاجتهاد: لماذا و كيف؟

---

د . يوسف الكتاني

الأمين العام لمجمع التجديد و الإحياء

---

النص الكامل للمحاضرة التي ألقيت تحت نفس العنوان بقاعة المحاضرات

بالمكتبة الوسائطية للمؤسسة بتاريخ 21 أبريل 2012





## تنمية التجديد و الاجتهاد: لماذا و كيف؟

### منهج البحث

#### - مدخل

- الإسلام و العقل.
- تحرير الإسلام للعقل البشري.

#### أولاً: التجديد و التغيير:

- المسلمون و التجديد.
- حدود التجديد و مداه و موضوعاته.
- ما يتجدد و ما لا يتجدد.

#### ثانياً: الاجتهاد:

- الاجتهاد فرض على الأمة الإسلامية.
- وسائل الاجتهاد.
- الاجتهاد الفرضي.
- الاجتهاد الجماعي.
- مجالات معاصرة للاجتهاد.
- مركز التجديد و الاجتهاد للعالم الإسلامي.

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد الهادي الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين.

إن خير ما أبدأ به في مثل هذه المناسبات واللقاءات العلمية والثقافية هو تقديم أخلص الشكر وأجزله وأعطره للقائمين على هذا النشاط الإسلامي الكبير، الذي أعاد للمدينة المجاهدة العتيدة مدينة الدار البيضاء تألقها العلمي، ووجهها المشرق، وأحدث حركة فكرية نشيطة ستعيد إلى مدينة الدار البيضاء العامرة نشاطها الفكري، وحيويتها التي عرفت عنها، والتي تؤكد أصالة محتدها، ووجهها الثقافي المشرق الذي يعنى بمسائل العلم وقضايا الفكر المعاصرة، وفي صدارتها هذا الموضوع الهام الذي نحاضر فيه اليوم، و نتناول جوانبه وعناصره إحياءاً منا ودفعاً بقضايا الأمة إلى مجال المناقشة والبحث، والدراسة والأحياء، حتى نشارك جميعاً في عملية التجديد والإحياء للمجتمع الإسلامي، وللمجتمع المغربي بخاصة، الذي يهفو بكل قواه وعناصره إلى النهضة الحق، والسمو والرفعة، وليكون في المستوى الحضاري الرفيع الذي وضع الله المسلمين فيه، ليعيشوا أعزة كرماء، أقوياء متواضعين، خير أمة أخرجت للناس كما أكد ذلك كتاب الله الكريم.

إخواني أخواتي..

سيداتي سادتي..

لن أحاول في هذا العرض أن أقدم دراسة أكاديمية مفصلة عن التجديد والإجتهد، وخصائصهما ومقوماتهما، ومجالاتهما وغيرها، مما يتصل بالإجتهد كمصدر من مصادر الشريعة الإسلامية، لكون الدارسين أشبعوا الموضوع دراسة وكتابة وتنظيراً.

وإنما أريد من وراء عرضي هذا أن أثير الإنتباه أولاً إلى ضرورة العمل الجاد من أجل أن تعود الأمة الإسلامية إلى ممارسة حقها في التجديد والإجتهد، كمصدر تشريعي أغنى وأعطى الكثير، وأجدى على المسلمين في أيام نهضتهم، وجعلهم

يلائمون بفضلهم بين دينهم وحياتهم، ويحقق الخاصية التي امتازت بها شريعتهم وهي صلاحيتها لكل زمان ومكان.

كما إنني أحاول ثانياً، التحدث عن الوسائل المؤدية إلى التجديد والإجتهاد، والتي تستعمل لتحقيقها والوصول إليهما سواء ما عرف منها فيما مضى، أو هذه الوسائل التي استحدثت اليوم، والتي تؤدي بلا شك إلى الخير والتقدم والتفوق.

وإنني لألح على ضرورة اتخاذ الوسائل الكفيلة بممارسة التجديد والإجتهاد حتى يعود تطبيق الإسلام كاملاً إلى مؤسساتنا ومجتمعاتنا، وحتى نقضي على هذه الازدواجية التي طغت على سلوكنا بالالتزام بالدين في العبادات والبعد عنه في المعاملات، فأنحرفت به عن وجهته الصحيحة، وعلى حياتنا فأبعدتها عن الطريق المستقيم، والسلوك القويم، الذي ينبغي أن يلتزم به المسلم، فلم نعد في المرتبة العليا التي رفعنا الإسلام إليها، ولم تبق حياتنا إسلامية صرفة، وإنما أصبحنا بين بين، والتحقنا بصفوف المقلدين والتابعين كما تحدث الرسول الكريم بقوله: " لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر و ذراعاً بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه، قيل: اليهود والنصارى؟، قال: فمن إذن؟ "1، والله الأمر من قبل ومن بعد.

لقد ترتب عن هذه الازدواجية أن أصبح الجيل الحاضر من شباب المسلمين أحد الفريقين:

\* فريق: يعتقد أن الإسلام دين عبادات فحسب، وأن المعاملات وشؤون الحياة تنظمها هذه القوانين الوضعية الدخيلة، وهي وحدها الكفيلة بتنظيمها وتقنينها، وهذا المفهوم العكسي للإسلام وروحه ونصه ناتج عن الغزو الأجنبي لبلادنا، وسيادة قوانينه وأوضاعه على حياتنا.

\* و الفريق الثاني: وهو المتمثل في شباب الصحوة الإسلامية، والذي ساعدته ظروفه على الإمام بالثقافة الإسلامية، والتعرف على روح الإسلام

<sup>1</sup> - رواه الحاكم في مستدرکه- وانظر مختصر شرح الجامع الصغير للمناوي 8/206، طبع دار الإحياء الكتب العربية- مصر سنة: 1373/1901.

ومقاصده، وهذا الفريق هو الذي يؤمن بأن الإسلام دين و دنيا، حكم و نظام، وسلوك و قدوة، وهذا الفريق من الشباب هو أمل المسلمين و عدتهم في مستقبل الإسلام، و عودته نقيا صافيا كما كان و كما أنزل، و أنه يجب أن يسود حياتنا في البيت، و المدرسة، و الجيش، و الشارع، و المحكمة، و في السلم و الحرب، و في سائر ظروف الحياة و بالتالي هو قدرنا و حياتنا و هويتنا.

### الإسلام و العقل:

مما لا شك فيه أن ميزة الإنسان الأساسية التي ميزه الله بها عن سائر المخلوقات قوته العاقلة، حيث جعل الله العقل للإنسان محور صلاحه و فلاحه لأنه جوهر إنسانيته، و هو أفضل القوى الإنسانية على الحقيقة، و من ثمة كانت الحكمة و آلتها العقل هي مقننة القوانين، و موضحة السبل، و واضحة لجميع المنظمات، و هي قوام الكمالات العقلية و الخلقية، و كان نقيض العقل و عدوه هو الجمود، و الصراع بينهما أزلي، لكن النصر كان حتما و أكيدا للعقل لأن الإنسان بواسطته يستجلي بعقله ما غمض و خفي من أسرار الطبيعة، و يصل بالعلم و بإطلاق سراح العقل إلى تصديق تصوراته و يصل به إلى ما يهدف إليه و ما يسعى، إذ لا شيء يستعصي على الكشف بواسطة هذا العقل الإنساني، و لذلك ذهب الشيخ جمال الدين الأفغاني إلى أن الحكم للعقل و العلم و أن للعقل نظرات، و لنظراته ثمرات هي فوق إدراك العامة و الجماهير التي لا يوافقها العلم و تعاليمه، لا يفقدها إلا نخبة من المتنورين، و يضيف قائلا:

"إن مسرح العقل و ميدانه ليس أمور الدنيا و علومها فقط، بل و علوم الدين أيضا، و الدين الإسلامي على الخصوص، فالإيمان يقين مع التحرج من النظر بل بإطلاق النظر في الأكوان حتى يصل إلى الغاية التي يطلبها بدون تقييد، فالله يخاطب في كتابه الفكر و العقل و العلم بدون قيد و لا حد، لأن الإسلام لا يعتمد على شيء سوى الدليل العقلي و الفكر الإنساني الذي يجري على نظامه الفطري، فلا يدهشك بخارق للعادة و لا يغش بصرك بأطوار غير معتادة، لأن التقليد ليس من شأن المؤمنين، و لا يكون المرء مؤمنا إلا إذا عقل دينه و عرفه حتى اقتنع به، لأن القصد من الإيمان أن يرتقي عقل المؤمن و تنزكي نفسه بالعلم بالله

و العرفان في دينه، و ليكون على بصيرة و عقل في اعتقاده".<sup>2</sup>

فمن هذا المنطلق المسترشد بالعقل أبرز التيار التجديدي العلاقة الضرورية بين الأسباب و هي من الأفكار المحورية في معارضة فكر التواصل التي لعبت دورها في تخلفنا و جمودنا في العصور الوسطى، و لذلك ذهب الشيخ عبد الحميد بن باديس و هو من المجددين المعاصرين (1889 - 1940) إلى أن نجاح الأمة في عصر حضارتها الذهبي يرجع إلى إيمانها بارتباط المسبب و هو الإيمان الذي أثمر الاعتقاد بحرية الانسان و واختياره، و بأن للأشياء في ذاتها و بطبيعتها نفعا أو ضررا، حسنا أو قبحا، بصرف النظر عن النصوص و النقل و المأثورات، تأسيسا على وجود الخالق الفاعل في هذا الكون، و هو الذي خلق الكون و القوانين و السنن التي لا سبيل إلى خرقها و تبديلها، كما أكد ذلك القرآن الكريم: "سنة الله في الذين خلوا من قبل و لن تجد لسنة الله تبديلا"<sup>3</sup>

و من هنا يمكن أن نؤكد أن المعرفة البشرية الضخمة الناجمة عن النظرة العقلية في الكون بمن فيه من كائنات، إنما تجدد فقط فيما هو من شؤون العقل البشري، و مما أذن الله للبشر في النظر فيه، أما ما لاشك للعقل به فيما هو من باب المعتقدات الدينية و العبادات فلا يناله التغيير و التبديل ، لأن حق التغيير فيها حق لله وحده، لأنه هو الذي فرض على كل قوم عبادة بعينها جاء بها النبي الذي أرسل إليهم.

و لذلك كان التوجيه القرآني لنا بإعمال الفكر و العقل في الملوكوت كله، كما امتلأت أي القرآن بذلك، نذكر بعضها للإستدلال هنا :

[ قل انظروا ماذا في السماوات و الأرض...]<sup>4</sup>

( أو لم ينظروا في ملكوت السماوات و الأرض... )<sup>5</sup>

<sup>2</sup> - مقام العقل في مدرسة التجديد الديني الحديث - د. محمد عمارة - مجلة الهلال 1400/1980.

<sup>3</sup> - سورة الأحزاب - الآية : 62 .

<sup>4</sup> - سورة يونس - الآية : 101 .

<sup>5</sup> - سورة الأعراف - الآية : 185 .

[ و من آياته خلق السموات و الأرض و اختلاف ألسنتكم و ألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين]<sup>6</sup>

هكذا و على هذا النحو تألق العقل في مدرسة التجديد الإسلامي الحديث، وعادت له تلك المكانة العلية التي تبوأها من قبل في الإسلام دينا و حضارة، عندما استطاع العرب و المسلمون بسلطانه أن يصبحوا سادة الدنيا و نحسبهم بالغين ما يريدون و غدا إلا بهذا السلطان و ذلك الإيمان الصادق.

### تحرير الإسلام للعقل البشري :

لقد رفع الإسلام عن العقل البشري الحجر و الوصاية التي فرضت عليه أزمانا و أحقابا، و أطلقه من إساره و قيوده التي اصطنعها الجاهلون و الغاؤون، و سرحه من جور التقليد و التقييد إلى عدل الإسلام و حريته، و حرض المسلمين بمختلف صنوف التحريض على التفكير، و التأمل و النظر، و استيعاب عجائب هذا الكون الذي يحيط به، و حمل العقل المسلم هذه الأمانة إلى البشرية كلها، فتفجرت بفضل ذلك ينابيع العلوم و الفنون، و الإدراك، و الإجتهد الذي يعتبر في عرف الإسلام إطلافا لقوى العقل، و جعل ذلك كله دينا، فوحد بين حقيقتين ظلتا على مدى الزمن في خصومة حادة، و حد بينهما و جمعهما في إسماع و تألف، و هما الحقيقتان الدينية و العقلية كما أكد ذلك الإمام الغزالي بقوله: " الدين عقل من خارج، و العقل دين من داخل"، الأمر الذي و حد مفهوم كل الإتجاهات و المدارس الفكرية الإسلامية، سواء كانت، عقائدية، أو فكرية أو غيرهما، إذ هنا تكمن خاصية التطور في شريعة الإسلام، يؤكد ذلك و يبينه أن الشريعة الإسلامية التي تستند قوانينها و مبادئها إلى القرآن و السنة كمصدرين أساسيين، لم تنص إلا على بعض الأحكام التفصيلية فيما يخص أو يتعلق بالحدود و الموارد، و معنى ذلك أن الإسلام لم يفصل إلا في مبادئ العقيدة و العبادات، و ترك مجال المعاملات، و هي مجال القوانين في عصرنا الحاضر، فلم يرد في القرآن و السنة إلا المبادئ العامة التي هي أساس كل تقعيد و استنباط و استلهام، و هذا هو السر في هذه الثروة الفقهية الضخمة الثرية، التي استنبطها الفقهاء و العلماء على مر العصور، لما استجد من الوقائع في الحياة، و لما عرض و يعرض من القضايا

<sup>6</sup> - سورة الروم - الآية : 22 .

والمسائل، كما امتازت هذه القوانين و القواعد المستنبطة نفسها، بكونها متطورة مختلفة من عصر إلى عصر، و هي المذهب الواحد نفسه باختلاف المجتهدين والأزمنة و الأمكنة جميعاً<sup>7</sup>

## أولاً : التجديد و التغيير

و لابد هنا من توضيح الأمر بالنسبة لفريقيين من الناس:

- فريق يقف جامداً: يأبى كل تطور أو تجديد، ومن ثم يعارض باب الإجتهد أو ممارسته.

- و فريق لا يفرق بين أمر التجديد و التغيير، و يرى هؤلاء أنه لا بد من تغيير شامل لما وجدوا عليه أنفسهم و الناس، مجاراة لأحوال العصور، و خضوعاً لناموس التطور، معتقدين أن هذا هو التجديد المأمور به، و الذي لا مندوحة عنه لفرض الوجود و ضمان الإستمرار.

و أساس الغلط عند الفريقين ينشأ من عدم التفرقة بين المدلولين، فإن التجديد ليس هو التغيير، بل التجديد في الدين يكون بإظهاره بالمظهر اللائق، و عرضه على أحسن وجه، و ذلك يقتضي المحافظة على جوهره، و عدم تغيير شيء من أوضاعه، و هذا هو المراد بالتجديد الذي يقوم به أولو الأمر من الأمراء و العلماء، كما حدده الرسول الكريم في الحديث الشريف: "إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها"<sup>8</sup> و كما فعل ابن عبد العزيز لما انحرف الناس عن الجادة في بعض أمور الدين، فردهم إليها، و كما فعل شيخ الإسلام ابن تيمية حيث نادى بالرجوع إلى صفاء العقيدة و التمسك بحبله المتين.

و لما كانت أصول الإسلام هي الكتاب، و السنة، و الإجماع، و القياس، تحددت مهمة التجديد، و انحصرت نطاقه، فما كان من قبيل العبادات أو الأحكام التي نص عليها الكتاب، أو السنة، أو أجمعت عليها الأمة، فالتجديد فيه يكون بالرجوع

<sup>7</sup> - أنظر تفصيل الموضوع في بحثنا "الحاجة إلى الإجتهد اليوم و مجالاته" مجلة كلية الشريعة - جامعة القرويين

فاس ص: 40-27 العدد 13 - 14 .1304/1984.

<sup>8</sup> - رواه أبو داود في سننه، و الحاكم في المستدرک، و البيهقي في معرفة السنن و الآثار عن أبي هريرة.

بالأمة إليه إذا انحرفت عنه أو اتبعت بديلا، أي إذا غيرت منه شيئا و تركت العمل به، و بالتالي فلن يكون في العبادات و أحكامها تغيير كالصلاة و الحج، و غيرهما، و كذلك الشأن في أحكام الزواج و الإرث و البيع، و الإجارة، فمن غير في شيء من ذلك فقد عهد إلى هدم الدين لا إلى تجديده.

أما ما لم يرد به نص ، و لم يتقرر له حكم فيما سلف، مما يحدث بحكم التطور و تقلب الزمن، فإن على العلماء و الفقهاء أن يجدوا له حكما بواسطة قياسه على ما ثبت، و إلحاقه بما عرف، و هذا هو التجديد أيضا لأنه بمقتضى بنائه على أسس الدين و قواعده المعتمدة فيه، يعتبر استمرارا له و نموا.

على أن التغيير لم يرد في القرآن إلا بمعنى الإنحراف و الزيغ عن السبب كما قال تعالى: [ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ]<sup>9</sup> أي لا يمنعهم رفته، و لا يحجب عنهم رضاه، إلا إذا بدلوا نعمة الله و كفروا و ارتكبوا ما يستوجبون نقمته و عذابه، و من ذلك الية الأخرى: [ ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ]<sup>10</sup>

مما يتبين أن التجديد هو غير التغيير، و أنه أكثر ما يتعلق بالإحياء و أساليب التبليغ، و بلورة الأحكام العملية في قوالب تتمسك بالأصالة و العمق الاسلاميين، و تكون في الوقت ذاته منسجمة مع النظرة المتغيرة للإنسان و متطلبات الحياة، كما أوضح ذلك المرحوم عبد الله كنون<sup>11</sup>

### المسلمون و التجديد :

لقد عاش المسلمون الأولون بقوة عقيدة التوحيد في المستوى الأرفع من القوة و العزة، و استقلال الشخصية، و الإيمان بالعلم و العمل، و اقتحام المصاعب بما عرف التاريخ عنهم من التفوق الساطع، الذي كانوا به في وقتهم خير أمة أخرجت للناس، إذ ازدهر الفكر الإسلامي في القرون الخمسة الأولى من الاسلام الإزدهار الذي استغرق جميع مراتب الإزدهار الممكنة بما اجتمع له من الغزارة و العمق،

<sup>9</sup> - سورة الرعد - الآية : 11

<sup>10</sup> - سورة الانفال - الآية : 53 .

<sup>11</sup> - منطلقات إسلامية - عبد الله كنون ص 160 - 164 .



والشمول، وإطلاق الإجتهد و حرية النظر، و بأكبر حشد من العلماء المجتهدين المجددين الذين أقاموا للعلم و العقل صرحا شامخا، تمثل في تلك النظريات والاختراعات و المؤلفات التي اتسمت جميعها بالدقة الرائعة في الفكر و الأداء، مما لا نظير له عند جميع كتاب الدنيا و أعلامها.<sup>12</sup>

و بعد انتهاء القرن الخامس الهجري الذي تميز بوضع آخر كتاب رائع في اصول الفقه و هو كتاب "المستصفي" للغزالي، الذي اتسم باستقلال الفكر و المنهج، غير أن الفقه بدأ ينحدر بصورة ملموسة بسبب انقطاع تيار علماء الفكر الإسلامي، و بداية انقراضهم، و ندرة وجود نظائر و خلفاء لهم كما يدعو إلى ذلك داعي التطور، و ابتكار اصول جديدة، و قواعد فكرية مستحدثة، مما أدى إلى إغلاق باب التجديد و الاجتهاد، و حرية النظر الفقهي و استقلاليته، ناهيك بمحنة خلق القرآن التي أدت إلى دفن حرية الرأي على يد المتوكل، إذ لم يبقى أمام الناس سوى النص و التقليد خاصة و أنه ثبت بالدليل القاطع أن نظرية العلم و أحكامه متغيرة لا تثبت على حال، فلو فسرنا القرآن بالنظريات العلمية - و هي كذلك - لزم من ذلك تغير أحكام القرآن بتغير أحكام العلم، و تحميله خطأ العلم، و هو أمر يدخل الشبهة على القرآن، و ذلك غير جائز قطعا، و هو ما أشار إليه الشاطبي بقوله: "إن كثيرا من الناس تجاوزوا في القرآن الحد فأضافوا إليه كل علم يذكر للمتقدمين أو المتأخرين من علوم الطبيعيات، و المنطق، و علم الحروف و جميع ما نظر فيه الناظرون من هذه الفنون مما لا تقبله الأدلة، و مما يؤكد أن القرآن لم يقصد فيه تقرير شيء مما زعموا، مما يدل أن للقرآن وظيفته الدينية المحددة، و له منهجه في التعبير عن اختصاصات هذه الوظيفة، و أن للعلم وظيفته المحددة فلا يجوز أن يعترض الدين طريق العلم، كما لا يجوز للعلم أن يعترض طريق الدين، و هو ما يقتضي قطعا أن الكمال الحقيقي للقرآن لا يفرض على العلم المتطور رأيا يعد قاطعا في نظر المسلمين يتنافى مع حكمة التجديد"<sup>13</sup>

و لهذا نجد الله سبحانه و تعالى يخاطب في كتابه الكريم الفكر و العقل و العلم بدون قيد و لا حد، و كان الوقوف عند حذفهم العبارة مضرا بنا، مناف لما كان

12 - ليفتح الإسلام أبوابه لكل علم جديد - د. محمد سعاد جلال ص 38 .

13 - أنظر النص الكامل عند الإمام الشاطبي

أسلافنا من جواهر المعقولات التي تركنا كتبها لتستفيد منها أم أخرى أصبحت الآن متفوقة الحضارة.

ثم جاءت فترة الحكم العثماني بخيرها وشرها والتي انزوى فيها العقل المسلم المبتكر، المحدد لظروف الدولة وطبائع الحكم فيها، وكتب الإمام الغزالي كتابه «تهافت الفلاسفة» الذي شن فيه أكبر هجوم على الفلسفة وعلى قوانين السببية وغيرها، مما اقتضى رد أب الوليد ابن رشد بكتابه العظيم «تهافت التهافت» الذي انتصر للفلسفة والعقل والذي وفق فيه بين النقل والعقل بتأويل النص إذا تعارض ظاهره مع براهين العقل، ومؤاخاته بين الحكمة والشريعة ولم يتخلف الأزهر آنذاك عن هذا الموقف إذ لم يكن أكثر شيوخه يطبقون سماع مصطلحات الفلسفة والمنطق والمعتزلة حتى شاع في بعض أروقته «من تمنطق فقد تزندق»<sup>14</sup> وهكذا إلى أن أنقذ الله الفكر الإسلامي بتيار التجديد الحديث واليقظة الحديثة، وظهر جمال الدين الأفغاني بفكره النير وأخذ يعقد حلقات دروس بمنزله يفيض فيه الحديث عن فلسفة الإسلام وفلاسفته، ويذكر تلاميذه بأعلام وأفكار قد جهلها وتناسوها، وتبعه في ذلك الشيخ محمد عبده الذي كان لا يزال طالبا بالأزهر، واقتدى بشيخه الأفغاني في دعوته التجديدية وانتصاره للعقل وللتجديد، الذي كاد ينقرض.

أن الحكم للعقل والعلم والإنسان من أكبر أسرار هذا الكون وسوف يستجلي بعقله ما غمض وخفى من أسرار الطبيعة.

إن الإسلام في تجده وتجديده وانطلاقه وامتداده ليس إلا تفسيراً حقيقياً للطبيعة المتجددة، والطبيعة الممتدة في الحياة، فالله تعالى شأنه قد مد الظل ولو شاء لجعله ساكناً كما قال في محكم كتابه<sup>15</sup>

### حدود التجديد ومداه وموضوعاته

قبل البدء في تناول هذا الموضوع نبادر إلى تصحيح مقولة مشهورة: الإسلام والتجديد والأصح أن نقول المسلمون والتجديد، لأن الإسلام جديد بنفسه

14 - مقام العقل في مدرسة التجديد - د. محمد عمارة ص 46 و 47 .

15 - الوسائل الفعالة للتجديد - د. محمد عبد المنعم خفاجي ص 29.

دائماً، فهو ليس في حاجة إلى تجديد، ولكن هم الذين يحتاجون إلى التجديد. لذا ينبغي أن نتساءل أولاً ما الذي ينبغي تجديده؟ وماهي حدود هذا التجديد ومداه، وما لا يجدد في الدين؟

ذلك أن هنالك أموراً في ديننا، وأصولاً ثابتة لا تقبل التبديل ولا التحويل ولا تخضع للتطور، فهي كسنن الله التي لا نجد لها تحويلاً ولا تبديلاً، كما نص على ذلك كتاب الله في صراحة ووضوح، مثل وحدانية الله وكون محمداً رسول الله، وأن الناس سيبعثون يوم القيامة محاسبون ومجزون، فتلك وغيرها من أسس عقيدة المسلم الثابتة القائمة التي لا تبديل فيها.

فالتجديد إذن لا يتناول هذه الأصول، كما لا يتناول العبادات من صلاة وصوم وزكاة وحج، وإنما ينصب التجديد على ما يجب أن يفهم المسلمون من أحكام الدين حيث تتصل بأمور الدنيا، وعندني أن تلك الأمور لا تخرج عن أحوال ثلاثة:

I. علاقة المسلمين بالمال والتجارة وأخذهم بأساليب الغرب في استثمار النقود، وعقد القروض، وتعاطي الفائدة، أم تركهم لكل ذلك خشية الوقوع في الربا وهي محرمة صراحة شرعاً.

II. علاقة المرأة بالرجل من حيث السفور والحجاب، وخروجها للعمل خارج البيت، ومناقشة الرجل في ذلك، والتعدد وحق الرجل فيه، وحق الرجل في الطلاق.

III. إنزال الحدود على من تجاوزها ولا سيما القطع في السرقة، والرجم في الزنا، والتعامل في البنوك، وغيرها من المؤسسات المالية بشروطها وسواها، مما يشتد الجدل فيه كثيراً هل نطبق الشريعة فيها أم لا؟ لكونها تتعلق بحياة المسلم وتعتبر عصبها مثل تدبير المال واستثماره، وتوزيعه، وطرق الحصول عليه، مما يعتبر منابع القوة في الحياة اليوم، ووسائل النفوذ وكذا مشاكل المرأة وعملها ودخوله أفي كل جوانب الحياة إلى جانب الرجل.

و لذلك يتحرى بعض العلماء والمفكرين في الأمر نظراً للجوانب التي أظهرها

تطبيق الحدود من كون المجرم مريضا و هو في حاجة إلى العلاج و التطبيب لا التأديب و التعذيب.<sup>16</sup>

### ما يتجدد و ما لا يتجدد

و كذا ظاهرة الحاجة و الفقر التي غلبت على المجتمع الإسلامي و ظاهرة الأمية الطاغية و التي تبلغ نصف المجتمع أحيانا، مما يدعو إلى تلميع و تفهم أسباب التخلف الذي لا يسمح بتطبيق الحد و لما ذكرنا من أسباب، و لتتبع أهل الغرب فيما فعلوا فنهضوا و سادوا، و ما علينا إلا اتباعهم مما يعني عزل الدين عن الدولة، و حصره في المساجد و جعله من شؤون أهل العلم مما يعتبر مناقضا للواقع ولدينا الحنيف، لأنه و هم و ضلال و خروج عن أمر الله و لا يؤدي إلى الخير. إذ أن الرأي الصحيح الحصيف الواضح أن هذا الدين يصلح آخره على ما صلح عليه أوله لقول الله تعالى:

«كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف و تنهون عن المنكر»<sup>17</sup>

و لهذا حدد كتاب الله كيف يتأتى التجديد و كيف يكون كي نحصد الخير المادي أي الرخاء، و رواج التجارة، و اختفاء الفقر، و ابتعاد شبح المجاعة، و ذلك بالتزامنا لما اختاره الله لنا و وجهنا إليه، لتحقيق التقدم و الرفاه و هو الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر لكون هذا التوجيه الإلهي يدعو إلى أصل الخير كله في الدنيا و الآخرة، و في السياسة و التربية.

و هذه الحقيقة مما يؤكد تاريخ الأمة الإسلامية في عهود الإسلام الخمسة و خاصة على عهد الرسول و صحابته الأبرار، عندما حول مجتمعا جاهليا ظالما طبقيا إلى مجتمع تسوده العدالة، و الإيمان، و الطهارة، في فقرة و جيزة جدا بلغ فيها المسلمون حد الكفاية و الاستقرار و السعادة و خاصة في عهد عمر بن عبد العزيز، بعد عصر السعادة الأول عصر النبي و صحابته حيث طبق الإسلام كأحسن ما يكون التطبيق، و أقيمت فيه الشريعة السمحة كاملة.

16 - الإصلاح السياسي ركن الزاوية في أمة الإسلام - د. فتحي رضوان ص 20 و 21

17 - سورة آل عمران الآية: 110

و من هنا تتابعت دعوات التجديد و مراحلها و نداءاته عبر تاريخنا و خاصة خلال القرن العشرين، بعد نداءات جمال الدين الأفغاني، و الشيخ محمد عبده، و سواهما حيث نجد ما قام به الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الأزهر من حركة إصلاح المحاكم الشرعية في مصر، التي كانت ترجع قضاءها و أحكامها إلى المذهب الحنفي و حده، و رأى المراغي أن هذا الالتزام هو نوع من الجمود لا يتفق مع سماحة الدين، فعدل عن ذلك إلى العمل بمذهب الأئمة الأربعة تيسيراً و تجديدًا.

كما كانت له آراء و جبهة في الحلف بالطلاق، و في منع وقوع الطلاق الثلاث بلفظ واحد، يؤكد ذلك و يدعمه ما روي عن جمال الدين الأفغاني أنهم ذكروا في مجلسه رأياً للقاضي عياض، و رأوا منه أنه غاية ما ينتهي إليه التجديد والاجتهاد، فرد عليهم بقوله:

يا سبحان الله، إن القاضي عياض قال ما قاله على قدر ما وسعه عقله و تناوله فهمه، و ناسب زمانه، فهل لا يحق لغيره أن يقول ما هو أقرب إلى الحق و أوجه وأصح من قول القاضي عياض أو غيره من الأئمة؟<sup>18</sup>

و هل يجب الجمود و الوقوف عند أقوال أناس هم أنفسهم لم يقفوا عند حد أقوال من تقدمهم؟ قد أطلقوا لعقولهم سراحها فاستنبطوا و قالوا، و أتى بما ناسب زمانهم، و تقارب مع عقول جيلهم، و تبدل الأحكام بتبدل الزمان.

ذلك أن القرآن لسان الإسلام و بيانه، كتاب مفتوح لكل قارئ و واع، و لقد جاء فيه على لسان رب العالمين (و لقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) أي من طالب علم منه و متفهم فيعينه الله على الفهم.

و للإمام أحمد القرافي هنا رأي و جيه جاء في شرحه لتنقيح الفصول حيث قال: و مما يؤكد العمل بالمصالح المرسله أن الصحابة رضوان الله عليهم عملوا أمورا لمطلق المصلحة لا لتقدم شاهد بالاعتبار نحو كتابة المصحف و لم يتقدم به أمر و لا نظير، و ولاية العهد من أبي بكر لعمر و لم يتقدم بها أمر، و ترك الخلافة شورى، و تدوين الدواوين، و عمل السكة للمسلمين، و اتخاذ السجن كما عمل

عمر بن الخطاب رضي الله عنه، و تجديد الأذان يوم الجمعة بالسوق، و توسعة المسجد بأراضي الأوقاف في مسجد رسول الله صلى الله عليه و سلم كما فعل عثمان رضي الله عنه، كل ذلك و غيره تم لمطلق المصلحة كما أن خلافة الله الناس على صلاح الأرض و عمارتها، و النهوض بأهلها في كل مجالات النهوض، التي لا تتعارض مع أصول الدين، و هذا هو المعنى الحقيقي للخلافة مما يجعل التجديد مرتبطا على امتداد الزمان للدين و للحياة حتى يرث الله الأرض و من عليها.

إن الإسلام الصحيح تجديد، و لذلك فهو يحض على التجديد و يدعو إليه، و ليس من الضروري أن يكون المجدد في الإسلام فقيها، فقد يكون من القراء، أو المحدثين، أو الزهاد،...

و قد يكون من أصحاب العلم الطبيعي و الرياضي و الفلسفي، و قد يكون من ولاة الأمور و أصحاب السلطان.

و لقد نظم الإمام السيوطي أرجوزة سماها «تحفة المهتمين بأخبار المجددين» ذكر فيها أسماء مجددي الأمة الإسلامية من القرن الأول إلى القرن الثامن و لم يذكر المجدد في القرن التاسع لكونه رجا أن يكون هو مجده بقوله :

و هذه تاسعة المئـــــــة قـــــــد أتت و لا يخلف ما الهادي و عد

و قد رجوت أنـــــــي المجدد فيها ففضل الله ليس يجدد<sup>19</sup>

و إذا كان لنا من رجاء في الله تعالى في هذا المقام الكريم، أن نتمنى من البارئ جلّت قدرته، أن يهب لأمة الإسلام و ييسر لها الأسباب، لظهور إمام مجدد مصلح و اسع الآفاق، مقدور الرأي، يؤكّد دعوة الإسلام للتجديد و الإصلاح و الاجتهاد و الفكر و التفكير، و العلم و التعليم، و هي وسائله الفعالة إلى تجديد شباب الإسلام، و إقصائه عن الغربة التي يعانيتها.

## ثانيا : الإجتهد

يمكن أن نعرف الاجتهاد بأنه استفراغ الوسع في تحصيل العلم و الظفر بالحكم

19 - انظر تحفة المهتمين للإمام السيوطي.

الشرعي،<sup>20</sup> أي استنباط الحكم من دليله، أي استخراج الحكم من الحجة ناشئاً عن الملكة<sup>21</sup> أي أن هناك اجتهاداً عاماً وهو بذل الجهد للتوصل إلى الحكم الشرعي العملي من دليله التفصيلي كما هو في اصطلاح الأصوليين.

و هناك اجتهاد بالرأي وهو بذل الجهد للتوصل إلى الحكم في واقعة لا نص فيها، بالتفكير واستخدام الوسائل التي هدى الشرع عليها للاستنباط بها في ما لا نص فيه.

و إذا فالرأي هو أساس الاجتهاد فيما لا نص فيه، هو التفكير بطرق التفكير التي أرشد إليها الشرع، لأنها أقرب إلى الصواب، وأبعد من الزلل، وتهدف إلى المصالح العامة الحقيقية، كما ذهب إلى ذلك الإمام الشاطبي في «الموافقات»، وهو المراد في قول معاذ بن جبل حينما سأله رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما ولاه قضاء اليمن، اقض بكتاب الله، فإن لم أجد فبسنة رسول الله، فإن لم أجد أجتهد رأيي وألو أي لا أقصر.<sup>22</sup>

و هو أيضاً المراد في قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه، عندما سئل عن معنى الكلالة في قوله تعالى: «وإن كان رجل يورث كلاله» أقول فيها برأيي، فإن كان صواباً فمن الله، وإن كان خطأً فمني: الكلالة غير الولد والوالد، ومن هنا يكون الرأي بمعنى التفكير بغير الطرق التي مهدها الشرع وهدى إليها، تفكيراً بالهوى وقريباً من الزلل، ويعتبر رأياً مذموماً، وهل ما عناه عمر رضي الله عنه بقوله: إياكم وأصحاب الرأي، وهو قول كثير من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم: من قال في الشرع برأيه فقد ضل وأضل.

و من هنا يتبين أن الاجتهاد بالرأي من أنواع الاجتهاد العام، الذي يشمل بذل الجهد للتوصل إلى الحكم المراد من النص الظني الدلالة، ويشمل بذل الجهد للتوصل إلى الحكم فيما لا نص فيه بالقياس أو الاستحسان أو الاستصلاح، أو

20 - الموافقات 1/54 للإمام الشاطبي.

21 - الإجهاد والتقليد - رضا الصدر ص -21 دار الكتاب اللبناني سنة 1976

22 - سنن أبي داود 3/303 مطبعة مصطفى محمد - القاهرة

غير ذلك من الوسائل التي أرشد إليها الشرع للاستنباط فيما لا نص فيه.<sup>23</sup>

و لذلك يتبين أن الاجتهاد بالرأي لا ينشئ حكما وضعيا من لدن المجتمع وإنما يكشف عن الحكم الشرعي الذي نصب الشرع أمارات عليه، و مهد الطرق للوصول إليه، مما يجعل الاجتهاد في شريعة الإسلام ضرورة حتمية مواكبة لحياة المسلمين لا في عصر دون عصر، و لا في مكان دون مكان، و لكن في كل العصور و في جميع الأزمنة، حتى يبقى المجتمع الإسلامي متطورا متجددا يلائم بين العبادة و المعاملة، و يعمل فيه المسلم لمعاشه كما يعمل لمماته، باعتباره النافذة الضرورية في حياة المسلمين، لتجد قضاياهم و مشاكلهم و وقائع حياتهم، قواعد و حلولاً لها تطبيقاً لخاصية الإسلام و قاعدته الأساسية و هي صلاحيته لكل زمان و مكان، باعتباره الدين الخاتم و الصالح للإنسانية كلها، و ذلك كله لا يتحقق إلا بممارسة الاجتهاد المستمر يؤكد هذه الحقيقة الإمام الشهرستاني في «الملل و النحل» بقوله: «إن الحوادث و الوقائع مما لا يقبل الحصر و العد، و نعم قطعياً أنه لم يرد في كل حادثة نص يتصور ذلك، و النصوص إذا كانت متناهية، و الوقائع غير متناهية و ما لا يتناهى لا يضبطه ما يتناهى، علم قطعاً أن الاجتهاد و القياس واجب الاعتبار حتى يكون بصدد كل حادثة اجتهاد».<sup>24</sup>

و يعلل الإمام الخطابي ذلك «بأن الله لو نص على حادثة من الحوادث و كفى الناس مؤونة الاجتهاد و الاستنباط، لماتت الخواطر، و تبدلت الأفهام، و سقطت فضيلة العلماء فأمر بين غير خاف فلو جاء في كل حادثة تحدث إلى آخر الدهر لاشتد حفظه، و لامتنع على الناس ضبطه، و لأدى ذلك إلى الضيق و الحرج عمن أمروا، لتعدد عصره، و العجز عن ضبطه و حفظه .

إنّ توالي الحوادث و الوقائع المستجدة، و المعاملات المستحدثة، و ذلك كله من طبيعة الحياة و استمرارها و دوامها، يجعل تلك الحوادث و الوقائع كلها محتاجة إلى أحكام و قواعد، و إلى استنباط و إيجاد الحلول الملائمة لها، و الوسيلة الوحيدة على ذلك هو الاجتهاد الذي هو سر حياة الأمة الإسلامية و مظهر حيويتها و استمرارها، و المظهر الوحيد للملاءمة بين دينها و حياتها، و استمراره

<sup>23</sup> - انظر بحثنا عن الاجتهاد مظهر أصالة الإسلام ص 6.

<sup>24</sup> - المرجع السابق ص 8.



ضروري لاستمرارها و بقائها ، مصداقا لما أكده الشاطبي في " الموافقات " : " إن الاجتهاد لا يمكن أن ينقطع حتى ينقطع التكليف ، و ذلك عند قيام الساعة " .

و من هنا كان الاجتهاد واجبا في حق الأمة الإسلامية كما ذهب إلى ذلك أئمة الإسلام أمثال : الشاطبي ، و الشوكاني ، و البغوي ، و العزّ بن عبد السلام الذي اعتبره ضروريا ، و طالب الأمة بممارسته حيث يقول : " إن وقعت حادثة غير منصوصة ، أو فيها خلاف بين السلف ، فلا بد فيها من الاجتهاد ، من كتاب أو سنة ، و ما يقول سوى هذا إلا صاحب هذيان .

و لم يكن علماؤنا في مختلف عصور الإسلام يترددون أو يحجمون عن الاجتهاد، و عن إلحاق الحكم الشرعي بكل حادثة جديدة عرضت لهم ، و لم تكن معروضة للسلف ، مستدلين على ذلك الحكم استدلالا سليما من أصول الشريعة ، بواسطة قواعد الاستنباط التي يرشد إليها علم أصول الفقه ، المستمد من كتاب الله الذي هو أصل الأصول التي لا تنتهي إليها أنظار النظار ، و مدارك أهل الاجتهاد ، كما ذهب إلى ذلك الإمام الشاطبي الذي اعتبر المجتهد : كل من اتصف بوصفين<sup>25</sup> :

أحدهما : فهم مقاصد الشرعية و كمالها .

و ثانيهما : التمكن من الاستنباط بناء على فهمه فيها ، سواء كان يجتهد لنفسه أم لغيره ، مما يعني ضرورة معرفة المجتهد المعاصر للموضوع المستحدث الذي يجتهد في استنباط أحكامه الشرعية .

أي أنه ينبغي الاجتهاد في حسن فهم الأحكام الشرعية القائمة ، و التعرف على عللها من أجل حسن تطبيقها على ظروف مجتمعنا المعاصر .

ثم الاجتهاد في حسن فهم الأحكام الشرعية الجديدة التي تنظم المعاملات المستحدثة ، و التي لم يكن للسلف بها عهد ، و لم يكن لها في الشرع قائم لازم ، لا يستغني عنه المسلمون في كل زمان .

## الاجتهاد فرض على الأمة الإسلامية :

ولذلك أجمع العلماء و في مقدمتهم الإمام الشاطبي على القول : بأن الاجتهاد فرض لازم للأمة الإسلامية ، وواجب عليها ، يقوم به الفرد الذي توافرت فيه شروطه ، أو كل جماعة إسلامية في كل جيل استكملوا أدوات الاجتهاد ، وتهيأت أسبابه من علماء المسلمين.

و الاجتهاد مرهون بالتكليف ، لأنه ضرورة من ضرورات الحياة ، كما أكد هذه الحقيقة القائمة الثابتة في حياة الأمة الإسلامية الهدي النبوي الشريف بقوله : "إن الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها"<sup>26</sup> و لذلك ذهب الإمام الشوكاني إلى القول بناء على هذا التوجيه النبوي الكريم : بأنه لا يصح أن يخلو عصر من وجود مجتهدين كي لا تتعطل الشريعة عن التطبيق ، وهذا هو المراد من قوله صلى الله عليه وسلم وإرشاده لأُمَّته .

و إذا كان الاجتهاد مرهوناً بالتكليف ، فهو قائم على المصلحة التي لا تقوم على الهوى ، و لا على بناء الحكم الشرعي على ما يستحبّه المجتهد دون دليل ، وإنما هي المصلحة التي يشهد لها الشرع بالاعتبار ، والتي لا تصادم نصوص الشريعة، أي هي المحافظة على مقصود الشارع ، والتي ترمي إلى أن تحفظ عليهم أنفسهم ، و دينهم ، و عقلمهم ، و سلامتهم ، و ما لهم ، كما ذهب إلى ذلك الغزالي في " المستصفي " .

وإن مراعاة مصالح الناس هي مقصد الشارع الحكيم ، و لذلك لم يتوسّع الإسلام في تفصيل أحكام المعاملات المالية و الاقتصادية ، و النظم الإدارية و العلاقات الدولية و غيرها ، لتطوّر الاجتهاد بتطور البيئة ، و اختلاف الزمان و المكان ، و إنما دلّ على ذلك بوجه عام ليكون المسلمون في سعة من استنباط الأحكام ، في ضوء المصلحة ، و دون حرج ، أو خروج على القواعد العامة للشريعة ، كما أكد على ذلك الإمام الشوكاني بقوله : " إن الله لم ينصّ على جميع الأحكام الشرعية أدلّة

<sup>26</sup> - رواه أبو داود في سننه ، و الحاكم في مستدرکه ، و البيهقي في « معرفة السنن و الآثار » ، و الخطيب في « التاريخ » و غيرهم عن أبي هريرة .

قاطعة ، بل جعلها ظنيّة قاصدا للتوسيع على المكلفين<sup>27</sup> .

و من هنا كان تغيّر الأحكام بتغيّر المصلحة العامة كما أكد ذلك ابن القيم قائلا: "السياسة العادلة جزء من أجزاء الشريعة ، إذ جميع الأحكام الناتجة عن الاجتهاد و مراعاة المصالح تتبدّل بتبدّل الزمان ، و أخلاق الناس ، و هي في الحقيقة مهما تبدّلت ، فإن المذهب الشرعي فيها واحد ، و هو : إحقاق الحق ، و جلب المصالح ، و درء المفساد ، و هو ما كان عليه اجتهاد الصحابة رضي الله عنهم و من تبعهم بإحسان ، قائما على المصلحة العامة ، كما هو الشأن في كثير من اجتهاداتهم كالتسعير فإنه كان منهيّا عنه على عهد الرسول الأكرم ، ثم أبيح فيما بعد ، و كالطلاق الثلاث يعتبر واحدة ، ثم اعتبره عمر ثلاثا عقابا للمطلق ، و تبعاً للمصلحة الظاهرة له أن ذاك " .

## و سائل الاجتهاد :

### الاجتهاد الفردي و الجماعي :

لقد كان السبب الأساسي في الوصول إلى مرحلة الجمود و التبعية للأجنبي غياب الشريعة الإسلامية عن منهج الحياة و أسلوبها ، حتى إذا جاء القرن الرابع عشر الهجري ، سُلخت من الشريعة كل مجالات المعاملات ، و نقل الفكر الغربي إلى البلاد الإسلامية ليكون هو فقه المعاملات الجديد ، و الناظر إلى الجهد الفقهي من خلال فتاوى دار الإفتاء في الأحوال الشخصية ، و الوقف و العبادات ، يجدها ثرية غنيّة ، بينما في النظام السياسي و المعاملات نلجأ إلى أهل المدارس الحديثة ، و لو نظرنا إلى كل المؤلفين و الباحثين عبر المئة سنة الماضية ، لمعرفة ما بذلوا من جهد في هذا المجال ، لوجدنا أنفسنا أمام سياق قانوني جديد ، و هذا هو سبب التخلف و الجمود ، و حالة التصلب الفكرية التي واجهت أمتنا عندما عزلت الشريعة عن الواقع ، و توقف الاجتهاد العملي في مجال التجديد الفقهي .

و هذه الجهود امتدّت عبر مدرسة القضاء الشرعي ، و شيوخ القرويين ، و علماء الأزهر و غيرها ، أمثال : محمد عبده ، و جمال الدين الأفغاني ، و المراغي ، و رشيد رضا ، و عبد الرحمن الكواكبي ، و محمد ابن عبد الوهاب ، و محمد الكتاني ،

27 - راجع ذلك في كتاب « إرشاد الفحول »

و عبد العزيز الثعالبي ، و عبد الحميد بن باديس ، و سواهم من دعاة التجديد والإصلاح، الذين نبهوا الأمة الإسلامية إلى ضرورة العودة إلى ممارسة حقها في الاجتهاد، للملائمة بين دينها وحياتها، و كانت حركاتهم ، و صيحاتهم ، و كتبهم ، و نداءاتهم، الناقدون الذي جلجل في آذان شعوبنا ، و أيقظها من سباتها و نبهها من غفوتها ، و دفعها للبحث عن نفسها ، و تغيير واقعها المرير .

و هكذا لم يخل عصر من العصور ، و لا زمن من الأزمنة الإسلامية ، من مجتهد من المجتهدين ، و لو على قلتهم و ندرتهم في العصور الأخيرة بسبب الجمود والجحود . الذي طمس التجديد و الاجتهاد ، لكنه لم يستطع القضاء عليه ، بفضل الإرادة الثابتة و المصممة لأولئك الرواد ، للعودة إلى الاجتهاد ، و تجديد أمر الدين ، و إذكاء روحه في النفوس و القلوب ، عن طريق العودة إلى الأصول ، و الامتثال للأوامر الدينية ، و إحياء القيم الإسلامية .

لقد أكد هؤلاء الرواد أن الاجتهاد ضرورة من ضرورات بقاء الأمة الإسلامية و استمرارها باعتبار الإسلام ديناً يخاطب العقل ، و يدعو إلى استعماله ، مثنياً في الكتاب الحكيم على " أولي الألباب " و على " الذين يعقلون " و " الذين يتفكرون " . و أن البقاء و الاستمرار للإسلام كدين خاتم لا يتحققان إلا بهذه الوسيلة ، و إلا انقطعت ما بين الدين و الحياة من روابط ، و انفصل أحدهما عن الآخر ، و هذا يؤدي إلى خمود شعلة الإيمان في القلوب كما ذهب إلى ذلك الدكتور علي فؤاد باشكيل - من الرواد المعاصرين الأتراك - في بحثه عن الاجتهاد باعتباره مفتاح قضية المسلمين .

لذلك لم يكتف هؤلاء العلماء الرواد بدعوة الأمة إلى ممارسة حقها في الاجتهاد، بل مارسوه هم أنفسهم سواء عن طريق الفتوى ، أو عن طريق كتاباتهم و أجوبتهم لما يعرض عليهم من مشاكل العصر ووقائعه ، ناهيك بفتوى الشيخ محمد الكتاني الشهيد في أوائل القرن الماضي عن الجنسية و التّجنّس ، حيث ذهب إلى تكفير المتجنّسين من المسلمين ، باعتبار التّجنّس يستظلّ بظلّ الكافر و يحتمي بحماه، مستدلاً على ذلك بالآية الكريمة " ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً"<sup>28</sup>.

لقد كانت هذه الفتوى الاجتهادية العظيمة ضربة كبرى لسلاح خطير و شر مستطير، أخذ يستشري في المجتمعات الإسلامية، ويمهد لاستعمارها، بتخطيط وتصميم من لدن أعداء المسلمين، واستطاعت هذه الفتوى أن تقف في وجه تيار التجنس و تقضي عليه، مما دعى كثير من علماء المسلمين في تونس و الجزائر، والشام و مصر و غيرها، إلى الإقتداء بها و نشرها و العمل بما جاء فيها، ومما جعل فتوى تحريم جنسيّة غير المسلمين عملاً تجديداً اجتهادياً رائعاً، جمع بين الأصالة و التجديد، في وقت كانت الأمة الإسلامية في حاجة إليها.

و كفتوى المرحوم عبد الله كنون الذي كان لا يرى الإحرام من الطائفة وإنما يحرم من جدّة بناء على الحديث الشريف "هُنَّ لَهَنّ - أي المواقيت - و لمن أتى عليهن ...إلى يوم القيامة"<sup>29</sup> و كان يشاركه الرأي في هذا الموقف العلامة المرحوم الطاهر بن عاشور.

كما نجد فتاوى اجتماعية عظيمة للشيخ الأفغاني، و عبده، و رشيد رضا، والكواكبي، و ذلك في أهم الوقائع و الأحداث التي كانت جارية في عصرهم، غير أن هذه الاجتهادات الفردية، لم تعد متفقة مع عصر الصحوة الإسلامية، وتعدد دول الإسلام، و اختلاف أنظمة الحكم، و حاجة المسلمين في جميع أنحاء العالم الإسلامي، إلى آراء و فتاوى موحّدة في شؤون دينهم و دنياهم.

### الاجتهاد الجماعي :

لقد عرفت العقود الأخيرة من القرن الهجري الماضي، أنواعاً من الاجتهاد صدرت عن الهيآت العلمية، و الروابط الإسلامية، و كانت هذه الفتاوى صدى لدعوات المصلحين للعودة إلى الاجتهاد، و ذلك مثل الفتاوى الصادرة عن الأزهر الشريف، و المجمع الفقهي بمكة المكرمة، و رابطة علماء المغرب، و المجلس الإسلامي الأعلى بالجزائر و غيرها.

إلا أن هذه الفتاوى أو بعضها، اصطدمت معارضة الهيآت الإسلامية المختلفة، كما وقع في فتوى المجلس الإسلامي الأعلى بالجزائر، بجواز استبدال ذبائح

<sup>29</sup> - أخرجه البخاري في صحيحه - كتاب الحج - باب مهل أهل مكة للحج و العمرة 2/142 - طبعة دار الفكر.

الهدى بئمنها ، عندما قرر المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي سنة 1390 هجرية عدم جواز ذلك ردا على الفتوى المذكورة ، ولم يعد الزمان زمان الفرد ، بل أصبح العصر مطبوعا بطابع الجماعة ، كما أنّ الحكم لم يعد للفرد ، بل غدا الحاكم شخصا معنويا ينبثق من روح الجماعة ، وهذا هو منطق الإسلام ، إذ كان أول من ندد بالاستبداد ، و حمل على الطغيان و أنشأ نظام الشورى ، و جعل يد الله مع الجماعة " و اعتصموا بحبل الله جميعا و لا تفرّقوا"<sup>30</sup>

كما كان من نتائج و آثار الصحوة الإسلامية التي تعتبر ظاهرة العصر في العالم الإسلامي شعور المسلمين بالذنب إزاء التفرقة التي أصابت شعوبهم ، و بددت كلمتهم ، و شتت صفوفهم ، حتى أصبحوا دويلات لا حول لها و لا طول ، بالرغم من موقعهم الإستراتيجي ، و إمكاناتهم المادية و الطاقية ، و كثرة عددهم ، حتى أصبحت الوحدة اليوم هدفهم و غايتهم لكي يصبح أمرهم بيدهم .

### مجالات معاصرة للاجتهاد :

لقد أخطأ من قال : إن باب الاجتهاد أغلق ، و دعا إلى إغلاقه ، متذرعين بشتى الوسائل و الأسباب ، ذلك أن نشاط الفتوى لم ينقطع أبدا طوال تاريخ الفكر الإسلامي ، و ما زال المفتون في جميع أنحاء العالم الإسلامي يجيبون المستفتين ، و يُصدرون فتاواهم في كل حين ، و كذلك ظلّ القضاء الشرعي قائما مستمرا ، إذ استمرت الأحكام الشرعية تتوالى في الصدور ، و هي مثل الفتوى دائما تحمل بين طياتها الجديد ، الذي يحلّ مشاكل الناس ، و يفصل في منازعاتهم ، مثلما تُطمئن الفتاوى المُستفتين المسلمين ، و تُهدي إلى ما ينبغي عمله و تطبيقه ، نظرا لحال الدول الإسلامية و تفرّقها ، و اختلاف أنظمتها ، و قلة العلماء و المجدّدين و المفكرين ، و انحسار دورهم بسبب الاستعمار الذي غزا دولنا بجيوشه ، و نظمه و قوانينه ، و عاداته الغريبة على مجتمعاتنا و كياناتنا ، و عمل على عزل الدين عن الدولة ، فقامت هذه الازدواجية التي ما زلنا نعاني منها في حياتنا ، بالتزام الإسلام و تطبيقه في العبادات و الابتعاد عنه في ميدان المعاملات ، التي تعتبر في نظر الإسلام روح الحياة و أساسها ، لقيام العلاقات الإنسانية عليها ، من باب تقليد

30 - سورة آل عمران - الآية: 103.

المغلوب للغالب كما ذهب إلى ذلك ابن خلدون<sup>31</sup> و استبدلنا مؤسساتنا الدينية ونظمنا الإسلامية، بهذه المؤسسات والنظم التي تقوم كلها على الربا والاستغلال، كالبنوك بأنواعها المختلفة، ومؤسسات التأمين، والقروض والقمار وغيرها، مما يتعارض مع أسس ديننا، وأحكامه، وهذه في رأيي ومثيلاتها هي المجالات المعاصرة التي ينبغي أن تتصدى لها جهود المجتهد في العالم الإسلامي اليوم، حتى ترتفع هذه الإزدواجية بين العبادات والمعاملات، وهذا التناقض من حياة المسلمين، الذين أخذ شعورهم بالذنب يتعاظم من جراء ذلك، بفعل روح الانبعاث التي أخذت تنمو، وانتشار التعليم والثقافة، وعودة الوعي لتصحيح المسار، ومحاولات بعض الدول مراجعة تشريعاتها وتنظيماتها على هدي الكتاب والسنة وظهور بعض المؤسسات الإسلامية التي تساعد على ذلك وإن كانت قاصرة في تكوينها وعملها، وعدم الالتزام بضمان تنفيذ قراراتها، حتى يستريح المسلم في عالم اليوم من هذه المعاناة، وهذا الشعور الذي أخذ يطغو وينتشر، بسبب الإيمان بشيء وإلزامه بتطبيق شيء آخر يعتقد حرمة. ونوه هنا بالمبادرة الطيبة المتمثلة في شركة التأمين الإسلامية المحدودة التي انشأها بنك فيصل الإسلامي السوداني بالخرطوم، برأسمال طرح للوساطة شريطة عدم إفادتهم من فائض عمليات التأمين، وإنما يعود عليهم عائد استثمار رأس المال<sup>32</sup>.

إن مؤسسات التأمين في أغلب أنواعها تقوم على وسائل وأنظمة يطبعها الغرر والغبن والربا، كما أنها لا تخلو من شبهة المقامرة، وتتنافى أعمالها مع طرق الكسب الطبيعية والمشروعة، ولذلك اختلفت آراء وأنظار العلماء فيها، مما يحتم توحيد الرأي حولها بما يتفق وروح الإسلام وتعاليمه.

ومثل التأمين بجميع أنواعه من تعاوني وتجاري وغيرهما، نجد مؤسسة أخرى تطغى على مرافق مجتمعنا وتستقطب نشاطه، وهي البنوك القائمة على الربا والاستغلال، والتي شهد هذا الجيل محاولة جادة لتغييرها، وإحلال البديل محلها، بقيام البنوك الإسلامية التس تقوم على أساس الشريعة الإسلامية وهداياها، والتي

31 - راجع مقدمة ابن خلدون ص 167 - الطبعة الرابعة - دار إحياء التراث العربي - لبنان

32 - الاسلام والتأمين للدكتور محمد شوقي الفنجري « مجلة العلوم الاجتماعية » ص -188 العدد الأول

- السنة الحادية عشر مارس -1983 الكويت

أثبتت تجربتها مصداقيتها حتى امتد نشاطها إلى أوروبا بالرغم من بعض سلبياتها، ويوجد الآن حوالي ثلاثين بنكا ومؤسسة مالية إسلامية منتشرة في أرجاء العالم، خاصة وأن هدف المصرف الإسلامي هو التوفيق بين ممارسة النشاط المصرفي في العصر الحديث، وبين الشريعة الإسلامية وأن يوفر للمسلم وسائل استثمار مدخراته وفق أحكامه.

إن هذه التجربة الناجحة تؤكد أن المسلمين يستطيعون أن يقيموا في دولهم مؤسسات مالية واقتصادية تتفق ومبادئ دينهم، ويكون لها الأثر الأكبر في حياتهم، وحبذا لو سارعت الدول الإسلامية وفي مقدمتها بلادنا إلى تبني هذه التجربة الرائدة، بعد التحقق منها، ودراسة نظمها، والتأكد من نتائجها.

وكذا الأمر بالنسبة لمؤسسات القرض بجميع أنواعها وأصنافها، لاضطرار المسلمين للتعامل معها، واستعمال أموالها، والعقود الاقتصادية الحديثة كعقد التوريد والبيع بما يسفر عنه سعر البورصة، وبيع العقار قبل بنائه حسب المخطط، والشفعة فيما يقبل القسمة، وثبوت هلال رمضان برقيا أو هاتفيا، وأطفال الأنابيب، واستبدال الأعضاء البشرية، كاستبدال القلب والكلى والعيون، وزراعة الأنسجة، وبنوك الحليب، والأطعمة المستوردة من البلاد الأجنبية، والتنظيم العائلي أو تحديد النسل، ووضع الودائع في البنوك الأجنبية وحكم الفوائد عنها، كل ذلك يدعونا للتفكير الجدي والعمل المستمر، ورعاية هذه المحاولات الفكرية والجماعية، في مجالات مهمة تستقطب حياة المسلمين لما لها من مساس بدولهم وأنظمتهم وتأثير في حياتهم ومجتمعاتهم، وأنها تحتاج إلى رأي جماعي واجتهاد موحد، تقوم به مؤسسة إسلامية تجمع أهل الرأي وعلماء الإسلام في مجمع واحد، يتفرغ لدراسة هذه الأمور، واستخراج الحكم المناسب لها، وتقديم البدائل والحلول المتفكرة مع مقاصد وروح العصر، وذلك بإقرار ما هو صالح ومتفق مع الشريعة، وإلغاء ما يتعارض مع أحكامها، حتى تستقيم حياتنا وتنظم أمورنا.

وإن مما يزيد الاهتمام بموضوع الاجتهاد الجماعي، ويدعو للتفكير الجدي فيه، والمسارعة إلى إنشاء مجعته، أمران مهمان:



أولهما: التسارع التكنولوجي العظيم الذي يزداد يوما بعد يوم، والذي لا نستطيع أن نلاحقه إلا بالجهد الكبير، و التطور العظيم، خاصة بالنسبة لدول العالم الثالث، التي يجب عليها أن تلاحق هذا التطور و إلا جرفها التيار تلاحقه بالوحدة و الائتلاف، و انتظام الجهود و التكتل و التأزر، و نبذ كل تفرق أو اختلاف في سائر المجالات.

و ثانيهما: هذه الفوضى العارمة في عالمنا العربي في مجال الفتوى، و اختلافها و تعددها في الموضوع الواحد، و خاصة بالنسبة لموضوعات حساسة و هامة بالنسبة للمسلمين، و أذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

- قضية استئجار الأرحام التي يختلف الأمر فيها بالنسبة إلينا كمسلمين عنها في البلاد غير الإسلامية.

- قضية نقل النطف و الاحتفاظ بها إلى ما بعد وفاة الزوج فيما يسمى بينوك النطف.

- و قضية القضايا في عالمنا اليوم، هي قضية الاستنساخ التي من شأنها إذا لم تقيد و لم تحدد و تقدر بقدرها، فستجرف ما قد يكون بقي للناس من أخلاق و التزام و خاصة خارج العالمين العربي و الإسلامي، لكون أبواب العالم قد أصبحت مفتوحة و مشتركة.

و هناك قضية جادة و هامة و هي قضية توحيد المطالع أو الرؤية بالنسبة للتاريخ الهجري، و خاصة توحيد الأعياد و المناسبات الدينية الهامة كرمضان و الحج و غيرها.

## مجمع الاجتهاد و التجديد للعالم الإسلامي

و من هنا أخذت الحاجة تشتد إلى مؤسسة اجتهادية جماعية تضم جميع ممثلي دول الإسلام و شعوبه، تتدارس أحداث المسلمين و مشاكلهم، و تتلمس لها الحلول و القرارات، و قد عرف منطلق القرن الهجري الماضي دعوة كريمة من عالم كبير مسلم هو بديع الزمان النورسي، من أجل إنشاء "مجلة شوري للاجتهاد" كما اكده و أوضحه في كتابه "الاجتهاد في العصر الحاضر" و كم يكون لي الشرف أن

أبادر بدوري إلى تجديد هذه الدعوة الكريمة، من على هذا المنبر الإسلامي الكريم، هنا في رحاب هذا المسجد الكبير الطاهر، وفي هذه المناسبة والمسلمون أشد ما يكونون حاجة إلى الوحدة سياسياً وفكرياً وتشريعياً، خاصة وأن هذا المجمع سيكون أوسع وأشمل وأكثر اختصاصاً من هذه المجالس والمجامع الموجودة في العالم الإسلامي والتي تعتبر بدورها طريقاً ورافداً لهذا المجمع.

ولهذا أقترح إنشاء مجمع للتجديد والاجتهاد الإسلامي، ويعتبر هذا المجمع العقل المدبر، والدماغ المفكر، في العالم الإسلامي كله، لانتظام سائر الدول الإسلامية فيه، ويتكون من:

1. ممثلين من كل دولة إسلامية بنسبة 3 - 5 من كبار علماءها المرموقين ذوي الكفاءة والاعتدار.

2. يختص هذا المجمع بالنظر في سائر قضايا المسلمين ومشاكلهم وجميع ما يتصل بحياتهم الفكرية والسياسية والدينية، وتوحيد الرأي فيها، والاجتهاد في شأنها، وإصدار القرارات الموافقة لأحكام الشريعة ومقاصدها.

3. يكون أعضاء المجمع متفرغين لعملهم المتواصل بالمجمع الذي يعقد دورات فصلية، تختم كل سنة بدورة عامة تعلن فيها قراراته.

4. تصدر قراراته بالأغلبية المطلقة لأعضائه.

5. يكون للمجمع مقر بمكة المكرمة، أو بأي عاصمة إسلامية أخرى يتفق عليها الأعضاء المؤسسون، وليكن مثلاً ببلادنا صاحبة الاقتراح والمبادرة له، ويشرف على تسييره وإدارته رئيس وهيئة منتخبة من بين أعضائه بالتناوب مرة كل سنتين.

6. يكون ممثلو كل دولة، فروعاً للمجمع في كل دولة إسلامية، تكون أداة وصل بينهما وبين المجمع، تتلقى المشاكل والمسائل، وتحيلها على المجمع للبحث فيها.

7. تلتزم الدول المشاركة في المجمع بتطبيق قراراته، والعمل على تنفيذها،

و احترامها، و عدم مخالفتها.

8. يصدر المجمع مجلة دورية أو سنوية، تنشر قراراته باللغات المنتشرة في العالم الإسلامي.

و أخيرا أحب إخواني أن أنوه بأن أسباب الاجتهاد اليوم، أسهل و أيسر منها فيما قبل، و ذلك بفضل تدوين علوم القرآن و السنة، و معرفة حالة الرواة، و استقراء علم الأصول، و معرفة طرق الاستنباط المعتمدة، مما يجعل أغلب العقبات التي اعترضت المجتهدين في السابق - مهدت الآن و أزيلت.

كما أن المصادر الرئيسية للأحكام الشرعية، قد استنبط منها الفقهاء الأوائل جل ما يمكن استنباطه من أحكام شرعية مستحدثة، إذ أن الاستنباط في عصرنا يمكن عن طريق الأصول المكملة، كالقياس، و المصالح المرسلة، و الاستحسان و غيرها.

« يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله و للرسول إذا دعاكم لما يحييكم »<sup>33</sup>

### إخواني أخواتي

- إن الرأي الصحيح عندي هو ان هذا الدين يصلح آخره على ما صلح عليه أوله، تأييدا لقوله تعالى « كنتم خير أمة أخرجت للناس..»

- ولا تجديد و لا اجتهاد في الإسلام إلا إذا رجعنا إلى كتاب الله و سنة رسوله، و استظللنا بتوجيهاتهما، و عقدنا العزم على تجديد إيماننا و عزم شبابنا، متخذين الوسائل الفعالة للتجديد و الاجتهاد.

- و في هذا الإطار وفق الله صفوة من علمائنا و مفكرينا و أساتذتنا إلى تأسيس مجمع للتجديد و الإحياء، كي يقوم بتجديد أمر الدين، و العناية بتطبيق توجهاته، و تحقيق مقاصده و غاياته، و ليعود إلى مجتمعنا إسماحه و هديه، و يسير بسيرة المصطفى عليه الصلاة و السلام، لتعود للمسلمين حريتهم و عزتهم و قوتهم و كرامتهم، سائلين التوفيق من الله، و السلام عليكم و رحمة الله تعالى و بركاته.



---

Conception et Impression  
DIMAGRAF-Tél: 05 22 21 44 80  
contact: dimagraf@menara.ma

